-١١٣٠٩-

ذكر فتح حصن برزية:

ثم سار السلطان من شغر إلى برزيـه، وهي قلعة حصينة في غاية القوة والمنعـة على سـن جبل شـاهـق يضرب بها المثـل في جميـع بلاد الأفـرنـج والمسلمين، يحيـط بها أودية من سـائر جـوانبهـا، وذرع علو تلها، فكان خمسمائة ذراع ونيفاً وسبعين ذراعاً.

وقال العماد: وكان وصول السلطان إليها يـوم السبت الرابع والعشرين من جمادى الآخرة، وملكها يوم الثلاثاء السابع والعشرين منه.

قال: فأحدقنا بها وبالجبل ونصبنا عليها المجانيق في سفحها، ولما رأى السلطان أنـه لاوصول إليها بالمجـانيق، وأن الاشتغال بها يطيل الـزمان، مال إلى الـزحف، فقسم النـاس ثلاثـة أقسام، وجعل النـوبة الاولى لعماد الدين زنكـي صاحب سنجار، والملك العادل، وتقـدم السلطان بنفسه في النوبـة الثانيـة، واشتد القتـال، وضاق بها الحال، ولما أيقنـوا بأنهم ملكـوا طلبوا الأمـان، وكفوا عنهم، وكـانت زوجة صاحـب حصن برزيـة أخت زوجة الابـرنس صاحب أنطـاكية، وقد سبيت وخبيـت، فما زال السلطان يطلبها حتى أظهـروها وأحضروها فمنّ عليهـا بالاعتاق، وحل عنهـا وعن زوجها قيـد الوثاق، وأحضر أيضاً ابنـة لهما وزوجها وعدة مـن أصحابهم، وأدخلهـم معها في الاطـلاق وسير معهـم إلى أنطاكيـة مـن أوفدهـم على أهلهم، فسرت زوجة البرنس بأختها.

وفي المرآة: وكـانت زوجـة صاحـب حصن بـرزيه عين للسلطـان على الفرنـج، والسلطان كان يـرى إليها ويـلاطفها، ولما فتحت القلعـة أسرها السلطان وزوجهـا وأولادها، فـأحسن إليهم وأطلقهـم، وبعث معهـم من أوصلهـم إلى أنطاكيـة، فزادت محبتهـا للسلطـان ومناصحتهـا له، وأنعـم السلطان بهذا الحصن على عز الدين المذكور عن قريب.

ذكر فتح قلعة دربساك:

ولما رحل السلطان من حصن برزية عبر من عند شقيف دركوش إلى شرقي العاصي، وجاء إلى جسر الحديد، وأقام هناك أياماً حتى تلاحق به العسكر، ثم سار إلى دربساك، ونزل عليها يوم الجمعة الثامن من شهر رجب وهي قلعة منيعة مرتفعة، وهي عش الداوية، وقاتلها قتالاً شديداً، وضايقها مضايقة عظيمة، وأمر بالنقب تحت برج، وتمكن النقب منها حتى وقع، وحموه بالرجال المقاتلة، ووقف في الثغرة رجال يحمونها ممن يصعد فيها.

قال صاحب النوادر: ولقد شاهدتهم وكلما قتل منهم رجل قام غيره مقامه، وهم قيام عرض الجدار مكشوفين إلى أن اشتد بهم الأمر حتى طلبوا الامان فأمنهم السلطان، وشرط عليهم أن ينزلوا بأنفسهم وبثياب أبدانهم لاغير، فعند ذلك رقا عليها العلم الاسلامي يوم الجمعة أيضاً الثاني والعشرين من رجب وأعطاها لعلم الدين سليمان بن جندر، ثم سار عنها بكرة السبت الثالث والعشرين من رجب متوجهاً إلى بغراس.

ذكر فتح قلعة بغراس:

وهي قلعة منيعة على رأس جبل شامخ قريبة من أنطاكية، كثيرة العدة والرجال، فنزل العسكر في مرج لها وصعد السلطان في جريدة عسكره إلى الجبل، ووقف بازاء الحصن، فنصب عليه المجانيق من جميع جهاته، وعين يزكاً لجانب انطاكية كيلا يحصل التشويش من جهة انطاكية، فضرب اليزك على باب انطاكية بحيث لايقدر أحد أن يخرج منها.

وقال صاحب النوادر: وأنا كنت في اليزك في بعض الايام، ولم يزل السلطان يقاتل أهل بغراس مقاتلة شديدة حتى ضاق بهم الحال، فخرج

مقدم الداوية يستأذنه في الحضور، فأذن له، ولما حضر طلب الامان فأمنهم السلطان على حكم دربساك، ورقا العلم السلطاني عليها في الثاني من شعبان، ثم سلم السلطان قلعة بغراس لعلم الدين سليمان المذكور آنفاً، فتسلم الحصنين: دربساك وبغراس، وكان علم الدين هذا صاحب أعزاز وتسلمها بذخائرها، ووجد في بغراس خاصة من الغلة اثني عشر ألف غرارة، سوى مافيها من سائر الاقوات.

ذكر مهادنة صاحب انطاكية:

ولما فرغ السلطان من أمر بغراس عزم على التوجه إلى أنطاكية، وكان الابرنس صاحبها عجل بارسال أخي زوجته يسأل من السلطان المهادنة والصلح على أن يطلق كل أسير عنده، وأجابه السلطان إلى ذلك، ووقع الصلح إلى ثمانية أشهر، وكان الابرنس هذا من أعظم ملوك الافرنج في هذه ا لبلاد، وكان أهل اطرابلس سلموا إليه اطرابلس أيضاً بعد موت القومص صاحبها، وجعل الابرنس ابنه في اطرابلس.

وقال صاحب النوادر: وكانت هدنتهم إلى سبعة أشهر على أنه إن جاءهم من ينصرهم وإلا سلموا البلدان إلى السلطان رحمه الله.

ذكر رحيل السلطان متوجها إلى دمشق:

لما فرغ السلطان من أمر بغراس ومهادنة صاحب أنطاكية رحل قاصداً الشام، فأتى حلب ودخلها في حادي عشر شعبان، ثم أعطى دستوراً للعسكر، وودع عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي بعد أن أنعم عليه بأنواع التحف والامتعة والدواب، ويقال إنما دخل السلطان حلب لان ولده الملك الظاهر سأله ذلك، فأتاها وأقام بقلعتها ثلاثة أيام، وولده يقوم بالضيافة حق القيام، ولم يبق من العسكر إلا من ناله شيء من نعمته، وبالغ في ذلك حتى أشفق عليه والده، ثم سار السلطان

من حلب في رابع عشر من شعبان قاصداً دمشق فاعترضه ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين، وأصعده إلى قلعة حماة، واصطنع له طعاماً حسناً، وأحضر له سماع الصوفية، وبات فيها ليلة واحدة، وأعطاه السلطان جبلة واللاذقية، ثم سار على طريق بعلبك حتى أتاها، وأقام بمرجها يوماً ودخل إلى حمامها، ثم سار منها حتى أتى دمشق قبل دخول رمضان بأيام يسيرة، فأقام بها حتى دخل رمضان، وما كان يرى تبطيل وقته عن الجهاد مهما أمكن، وكان قد بقي له من القلاع القريبة من حوران التي يخاف عليها من جانبها: صفد وكوكب، فرأى أن يشغل الزمان بفتح المكانين في الصوم.

وقال ابن كثير: ولما دخل السلطان دمشق أشاروا عليه بتفريق العسكر ليريحوا ويستريحوا، فقال السلطان: إن العمر قصير، والاجل غير مأمون، فخرج من دمشق لغزوته في أوائل رمضان يريد صفد.

ذكر فتح صفد:

ولما خرج من دمشق أتى على صفد في أثناء شهر رمضان، وهي قلعة منيعة قد تقاطع حولها بالاودية، فأحدق العسكر بها، ونصب المجانيق، ولم يزل القتال متواصلاً بالنوب مع الصوم حتى سلموها بالامان في الرابع عشر من شوال من هذه السنة.

ذكر فتح قلعة كوكب

ولما فرغ السلطان من أمر صفد سار إلى كوكب وعليها الأمير قايماز النجمي وقد ذكرنا ان السلطان خلاه عليها يحصرها، ونزل السلطان على سطح الجبل، وجرد العسكر وأحدقوا بالقلعة وضايقوها بالكلية، وكانت الأمطار متوالية، والوحول كثيرة بحيث تمنع الماشي والراكب إلا بمشقة كبيرة، وعانى السلطان شدائدا وأهوالا من شدة الرياح وتراكم الأمطار،

وكون العدو متسلطا عليهم بعلو مكان، وجرح خلق من العسكر وقتل جماعة، ولم يزل السلطان راكبا مركب الجد حتى تمكن النقب على سورها، ولما أحسوا بالنقب وقد تمكن علموا أنهم مأخوذون فطلبوا الأمان إلى ذلك وأمنهم وتسلمها في منتصف ذي القعدة، وسير أهلها إلى صور، وكان اجتماع أهل هذه القلاع كلها في صور.

وقال ابن كثير: وكان حصن كوكب معدن الاسبتارية، كما ان صفد معدن الداوية، وكانوا أبغض أجناس الافرنج إلى السلطان، لايكاد يترك منهم أحدا إذا وقع من المأسورين، ولما فتحت قلعة كوكب عرضها السلطان على جماعة فلم يقبلوها، وتولاها قايماز النجمي عن كراهة.

ذكر فتح الكرك:

لما كان السلطان سار إلى البلاد الشمالية جعل على الكرك وغيرها من حاصرها أخاه الملك العادل في تلك البلاد يباشر ذلك، فأرسل أهل الكرك يطلبون الامان، فأمر العادل المباشرين لحصارها بأن يتسلموها فتسلموا الكرك والشوبك وغيرهما مما في تلك الجهات.

وقال العماد: وكان الملك العادل مقيماً بتبنين بالعسكر تحرزاً على البلاد من غائلة الفرنج، مقوياً للامراء المرتبين على الحصون، وكان صهره سعد الدين كمشبه بالكرك موكلا وبأهله منكلاً، فتوسلوا بالملك العادل حتى دخلوا في الحكم، وخرجوا على السلم. وكان فتح الكرك في أثناء شهر رمضان.

وفي تاريخ بيبرس: قد كان الملك الناصر صلاح الدين رتب على الكرك العساكر صحبة سعد الدين كمشبه، صهر الملك العادل فحصروها ليلاً ونهاراً مدة حتى فنيت منها الازواد، وأكل أهلها جميع

الحيوان الـذي عندهـم، فأذعنـوا للتسليم وسلمـوا، وكفى اللـه المسلمين شرهم.

ذكر مافعل صلاح الدين بعد هذه الفتوحات في هذه السنة:

قد ذكرنا أنه لما فرغ من أمر بغراس ومهادنة صاحب أنطاكية توجه إلى دمشق، وجعـل طريقه على حلب، وكـان معه الامير قاسم بـن مهنا أمير المدينة، وكنيتـه أبو فليتة الحسني، وكـان ميمون النقيبة، مبـارك الطلعة، وكان السلطان قـد تيمن بطلعته، فما حضر معه بلداً إلا فتحـه، ثم جعل السلطان طريقه على المعرة، فزار قبر عمر بـن عبد العزيز رضي الله عنه، والشيخ أبا زكريا المغربي.

وقـال العماد الكاتـب: ولما خرجنـا مـن حلب على قبر عمـر بن عبـد العزيز رضي اللـه عنه، قصد السلطان زيـارة الشيخ الفقيه الزاهـد التقي أبي زكريا المغربي، وكـان مقيمـا هناك، وكان من عباد اللـه الصالحين وله كرامـات ظاهرة، وكـان القاضي الفاضـل مع السلطان في هـذه المواقف المذكورة، فكتـب عن السلطـان الى أخيه سيف الاسـلام صاحـب اليمن يستدعيه إلى الشام لنصرة أهل الاسلام، فإنـه قد عزم على حصار أنطاكية بنفسه، ويكون تقي الدين حاصراً طـرابلس إذا نسلخ هذا العام، ثم عزم القاضي الفـاضل على الـدخول إلى الديـارالمصريـة،فسار السلطـان معه لتوديعه، ثم عدل السلطان إلى القـدس الشريف، فصام فيه الجمعة وعَيد فيه عيـد الاضحى، ثم سـار ومعه أخـوه الملك العادل إلى عسقـلان، ثم أقطع أخـاه الكرك عـوضاً عن عسقـلان، وأمره بـالانصراف ليكون عـوناً لابنـه الملك العـزيز في الـديار المصريـة، على حـوادث الزمـان، ثم عـاد السلطان فأقام بمدينة عكا حتى انسلخت هذه السنة.

وفي النوادر: وكان دخول السلطان بيـت المقدس، وصحبه أخوه الملك

العادل في ثامن ذي الحجة من هذه السنة وصليا الجمعة في قبة الصخرة الشريفة، وصليا صلاة العيد بها يوم الأحد، ثم عاد السلطان إلى خيمته، وأمضى بقية يومه، ثم سار يوم الاثنين الحادي عشر من ذي الحجة طالباً عسقلان لينظر في أحوالها ويودع أخاه، فأقام بها أياما يلم شعثها، ويصلح أحوالها، وودع أخاه العادل، وأعطاه الكرك وأخذ منه عسقلان، ثم عاد يطلب عكا على طريق الساحل، فأقام بها إلى أن مضى أكثر المحرم من السنة الآتية، ورتب بها بهاء الدين قراقوش والياً، وأمره بعمارة السور والاطناب فيه، ومعه حسام الدين بشارة، ثم سار يريد دمشق بعد وصول طائفة من عسكر مصر أودعهم في عكا مدد حفظها، ودخل دمشق في مستهل صفر من السنة الآتية على مانذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر بقية الحوادث:

منها أن طائفة من الرافضية بمصر خرجت يريدون ان يعيدوا دولة الفاطميين الذين حكموا في الديار المصرية والشامية وغيرهما، واغتنموا غيبة الملك العادل عن مصر، واستخفوا بأمر الملك العزيز عثمان ابن السلطان صلاح الدين فبعثوا اثني عشر رجلا ينادون في الليل: ياآل علي، على أن العامة تجيبهم إلى ماعزموا عليه، فلم يلتفت إليهم أحد، فلما رأوا ذلك انهزموا فأدركوا وأخذوا وقيدوا وحبسوا، ولما بلغ أمرهم إلى السلطان ساءه ذلك، وكان القاضي الفاضل عنده بعد، ولم يفارقه لاجل سفره إلى مصر، فقال له: أيها الملك ينبغي أن تفرح ولاتحزن، فإنه لم يصغ إلى دعوة هؤلاء الجهلة أحد من رعيتك ولا التفتوا إليهم، ولو أنك بعثت من قبلك جواسيس يختبرون رعيتك لسرك مابلغك عنهم، فسرى به عنه ذلك، ورجع إلى قوله، ولهذا أرسله إلى مصر ليكون له عيناً وعوناً ومعينا...

- ١١٣١٦ -

ذكر من توفي فيها من الأعيان:

أسامة بن منقذ: وهو أبو المظفر أسامة بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني الكلبي الشيزري، الملقب مؤيد الدولة، مجد الدين، من أكابر بني منقذ أصحاب قلعة شيزر وعلمائهم وشجعانهم، له تصانيف عديدة في فنون الادب، وله ديوان شعر في جزئين، ذكره ابن المستوفي وأثنى عليه، وعده في جملة من ورد عليه، وأورد له مقاطيع من شعره.

وذكره العماد في الخريدة، وقال بعد الثناء عليه: سكن دمشق، ثم رماه الزمان إلى حصن كيفا، فأقام بها حتى ملك السلطان صلاح الدين دمشق، فاستدعاه، وقد شيخ، فجاوز الثمانين، وقال العماد: وكنت أتمنى أبداً لقياه حتى لقيته في صفر سنة إحدى وسبعين، وسألته عن مولده فقال: يوم الاحد السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة بقلعة شيزر، وتوفي ليلة الثلاثاء الثالث والعشرين من شهر رمضان سنة أربع وثمانين وخمسمائة بدمشق، ودفن من الغد بجبل قاسيون، وتوفي والده أبو أسامة مرشد سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة.

وقال ابن خلكان: فرأيت ديوانه بخطه ونقلت منه:

لاتستقر جلداً على هجرانهم
فقواك تضعف عن صدود دائم
واعلم بأنك إن رجعت إليهم
طوعاً وإلا عدت عودة راغم

وقال: ونقلت من خطه لنفسه وقد قلع ضرسه، وقال: عملتهما ونحن بظاهر أخلاط، وهو معنى غريب يصلح أن يكون لغزاً في الضرس:

وصاحب لا أمل الدهر صحبته
ليشقى لنفعي ويسعى سعي مجتهد

لم ألقه مذ تصاحبنا فحين بدا
لناظري افترقنا فرقة الابد .

ويروى: فمذ وقعت عيني عليه افترقنا فرقة الابد......

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الخامسة والثمانين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة الناصر لدين الله والسلطان صلاح الدين يوسف مقيم على عكا، والامر مستقيم، فوصل إليه جماعة من مصر، فأمرهم بالاقامة فيها محافظة على الحماية، وأمر بهاء الدين قراقوش بإتمام بناء السور وولى الامير حسام الدين بشارة بعكا والياً، ثم خرج السلطان وسار على طبرية ودخل دمشق مستهل صفر من هذه السنة.

وفي تاريخ بيبرس أن السلطان قدم عكا في أول هذه السنة، والصحيح أن السنة دخلت وهو مقيم على عكا.

وذكر صاحب النوادر أنه كان مع السلطان، وأنه وصل إلى عكا في أواخر ذي الحجة من السنة الماضية، وأنه أقام بعكا معظم المحرم من سنة خمس وثمانين وخمسمائة، ثم سار حتى دخل دمشق في مستهل صفر منها، وأقام حتى دخل ربيع الاول.

وفيه جاء رسل الخليفة إليه كما نذكره إن شاء الله تعالى:

ذكر خروج السلطان صلاح الدين لأجل شقيف أرنون:

قال ابن كثير: أقام السلطان شهر صفر في دمشق، ثم خرج منها في ثالث ربيع الأول يوم الجمعة وأتى مرج برغوث، وأقام به إلى يوم السبت حادي عشر الشهر، ثم رحل على سمت بانياس، وأتى مرج عيون، وخيم

بقرب الشقيف وذلك يوم الجمعة سابع عشر ربيع الاول، وكان الشقيف في يد صاحب صيدا أرناط، فنزل إلى خدمة السلطان، وبذل له تسليم الشقيف بعد مدة ضربها خديعة منه، فلما بقي للمدة ثلاثة أيام استحضره السلطان فقال له في التسليم، فقال: لايوافقني عليه أهل الحصن، فأمسكه السلطان وبعث به إلى دمشق فحبس بها، ثم تحول السلطان من مخيمه إلى أعلى الجبل يوم الاربعاء الثامن من رجب لمحاصرة الحصن، ورتب له عدة من الامراء وأمرهم بملازمته في الصيف والشتاء إلى أن تسلمه بعد سنة بحكم السلم، وأطلق صاحبه، وأجرى عليه حكم الحكيم.

وفي تاريخ بيبرس: لما نزل إلى السلطان صاحب الشقيف، وهو أرناط صاحب صيدا، أظهر الطاعة والمودة، وقال: أنا محب لك ومعترف باحسانك، وأخاف أن يعرف المركيس صاحب صور مابيني وبينك، فينال أولادي وأهلي منه أذى فانهم عنده، وأشتهي ان تمهلني حتى أتوصل إلى تخليصهم، وحينئذ أحضر أنا وإياهم إلى خدمتك ونسلم الحصن، وأكون في خدمتك، ونقنع بما تعطينا من اقطاع، فظن صدقه، فأجابه إلى ماسأل، وأقام بمرج عيون ينتظر الميعاد، وهو قلق مفكر لقرب المدة، أعني مدة المهادنة التي بينه وبين صاحب أنطاكية، فأمر تقي الدين ابن أخيه أن يسير فيمن معه من عساكره وعساكر الشرق ويكون مقابل أنطاكية لئلا يغير صاحبها على بلاد الاسلام عند انقضاء مدة الهدنة، وكان بلغه ان الفرنج اجتمعوا بمدينة صور، ومايتصل بهم من الامداد في البحر، وأن صاحب عسقلان الذي كان أسره ومن عليه اجتمع مع المركيس بصور وأنهم خرجوا في خلق لاتحصى، وكان يخشى أن يترك الشقيف وراء ظهره ويتقدم الى صور وفيها الجموع المتوفرة فتنقطع الميرة عنه، وكان أرناط صاحب الشقيف يجتهد في تحصينه وتحصيل مايقويه من الاقوات والسلاح، وبلغ ذلك الناصر فأحضره قبل انقضاء المدة فقال: تسلم الحصن، فاعتذر، وذكر ماذكرناه الآن.

وقال صاحب النوادر: نزل صاحب الشقيف بنفسه، فما حسسنا به الا وهو قائم على خيمة السلطان، فأذن له فدخل واحترمه وأكرمه، وكان من كبار الافرنج وعقلائها، وكان يعرف بالعربي، وعنده اطلاع على شيء من التواريخ والاحاديث.

قال: وبلغني أنه كان عنده مسلم يقرأ له ويفهمه، وكان عنده ثان، فحضر بين يدي السلطان وأكل معه الطعام، ثم خلا به وذكر أنه مملوكه وأنه يحب طاعته، وأنه يسلم المكان إليه من غير نقب، واشترط أن يعطى موضعاً يسكنه بدمشق، فإنه بعد ذلك لايقدر على مساكنة الافرنج، وكان قد تردد الى الخدمة ثلاثة أشهر من تاريخ اليوم الذي أتى إليه، وكان كل وقت يناظرنا في دينه ونناظره في بطلانه، وكان حسن المحاورة متأدباً في كلامه.

ذكر ماتجدد للسلطان مدة اقامته بمرج عيون من الاحوال:

وبلغه أنه اجتمع من كان سلم من الافرنج على ملكهم الذي خلص من الاسر، وقالوا: نحن في جمع خارج عن الحصر وقد تواصلت الينا امداد من البحر فانهض بنا إلى ازالة هؤلاء عنا، وجاء من كان بطرابلس وخيموا على صور، وجرت بين المركيس المقيم بها وبين الملك مراسلات، فلم يمكنه من دخول البلد، ثم احتج أنه من قبل الملوك الذين من وراء البحار، وأنه منتظر لما يبرمونه من الامر، ثم اتفقوا على أن يقيم المركيس بصور، وأنهم يجتمعون على حرب المسلمين وقتالهم، ويتساعدون على رم ماتشعث من أموالهم ويقصدون بلداً اسلاميا من الساحل والمركيس يمدهم من صور بالمدد بعد المدد، وبجميع مايحتاجون إليه من الميرة والاسلحة والعدد، ووصل هذا الخبر يوم الاثنين السابع عشر من جمادى الاولى من اليزك، قالوا: إن جمع الفرنج قد نهض كالليل المعتكر، وأنهم

على قصد صيدا للحصر، فركب السلطان في الحال، فقبل وصول السلطان التقت اليزكية بهم فكسرتهم، وأسروا منهم سبعة من سباعهم، واستشهد من المماليك الخواص أيبك الاخرس، وقد كان شجاعاً شهماً، وانفصلت الحرب قبل وصول السلطان، وعاد السلطان الى خيم ضربت له بقرب اليزك، وأقام الى يوم الاربعاء تاسع الشهر، وركب في ذلك اليوم ليطلع في الجبل على القوم، ولم يكن له نية القتال، فلم يستصحب معه من يستظهر به من الرجال، وتبعه خلق كثير من غزاة البلاد بغير علمه وظنوا أن السلطان إنما ركب للقتال، وعلى عزمه، وكان الفرنج قد بصروا بالقوم فطمعوا فيهم، ونفذ السلطان بعض الامراء الى الغزاة الرجالة ليعودوا فما قبلوا، وحمل عليهم العدو فأسروهم وقتلوهم وختم الله لهم بالشهادة، وحمل الحاضرون من الامراء والعسكر على الافرنج حملة واحدة، وتزاحموا على الجسر فغرق منهم زهاء ثمانين في النهر، والحرب سجال، فيوم لنا ويوم علينا، ولم يكن لاولئك الفرقاء بقتال الفرنج دربة، وممن لقي الله بالشهادة وختم له بالسعادة الأمير غازي سعد الدولة بن مسعود ابن البصارو، وكان شاباً شجاعاً، فلم يصب الكفار، من المسلمين مذ أصيبوا غير هذه الكرة.

وفي النوادر: لما كان يوم الاثنين السابع عشر من جمادى الاول بلغ السلطان من جانب اليزك أن الفرنج قد قطعوا الجسر الفاصل بين أرض صور وأرض صيدا، وهي الارض التي نحن عليها، فركب السلطان وصاح الجاووش بالناس، فركب العسكر يريدون نحو اليزك، فوصل العسكر وقد انفصلت الوقعة، وذلك أن الفرنج عبر جماعة منهم الجسر، فنهض لهم اليزك الاسلامي، وكانوا في عدة وقوة فقاتلوهم قتالاً شديداً، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وجرحوا أضعاف ماقتلوا، ورموا جماعة فغرقوا، ولم يقتل من المسلمين الا مملوك للسلطان يعرف بأيبك الاخرس، وكان شجاعاً باسلاً مجرباً للحرب ممارساً، تقنطر به فرسه، فلجأ إلى صخرة فقاتل بالنشاب حتى فني، ثم بالسيف حتى قتل جماعة، ثم تكاثروا

عليه فقاتلوه، ووجد السلطان عليه لمكان شجاعته، وعاد السلطان من الوقعة إلى مخيم ضرب له قريب المكان، وأقام هناك إلى يوم الاربعاء تاسع عشر جمادى الاولى المذكور، وركب يتشوف على القوم على عادته فتبعه خلق عظيم من الرجالة والغزاة والسوقة، وأمر السلطان بردهم فلم يرتدوا، وذلك لأن المكان كان صعبا ليس للرجالة فيه ملجأ، ثم هجم الرجالة على الجسر، وناوشوا العدو، وعبر منهم جماعة إليهم، وجرى بينهم قتال شديد، واجتمع من الفرنج خلق كثير فحملوا عليهم حملة واحدة على غرة من السلطان، فإنه كان بعيدا عنهم، ولم يكن معه عساكر، وأسروا من المسلمين جماعة وقتلوا جماعة، وعدّ من كان قتل من الرجالة في ذلك اليوم فكانوا مائة وثمانين نفراً، وقتل من الفر نج أيضاً عدة عظيمة، وغرق أيضاً منهم عدة، وكان ممن قتل منهم مقدم الالمانية، وكان عندهم عظيماً.

ذكر مسير السلطان جريدة إلى عكا:

ولما رأى السلطان ماحل بالمسلمين في تلك الوقعة البادرة جمع أصحابه وشاورهم، وقرر معهم أنه يهجم على الفرنج ويعبر الجسر ويقاتلهم ويستأصل شأفتهم، وكان الفرنج قد رحلوا عن صور ونزلوا قريب الجسر، وبين الجسر وصور مقدار فرسخ أو أزيد منه بشيء يسير، فلما صمم العزم على ذلك أصبح في يوم الخميس السابع والعشرين من جمادى الاولى على ذلك، وركب وسار وتبعه الناس المقاتلة والعساكر، ولما وصل أواخر الناس إلى اوائلهم وجدوا اليزك عائداً، وخيامهم قد قلعت فسئلوا عن ذلك فذكروا ان الافرنج رحلوا راجعين الى صور ملتجئين الى سورها، معتصمين بقربها، ولما رأى السلطان ذلك منهم، رأى أن يسير إلى عكا ليلحظ مابني من سورها ويحث على الباقي ويعود، فراح على تبنين، ولم يرجع على مرج عيون، فمضى الى عكا ورتب أحوالها، وأمر بتتمة عمارة سورها، وأمر بالاحتياط، ثم عاد إلى

العسكر المنصور الذي بمرج عيون، وأقام منتظراً مهلة صاحب الشقيف.

ذكر وقعة أخرى

ولما كان يوم السبت السادس من جمادى الآخرة، بلغ السلطان أن جماعة من رجالة العدو يتبسطون ويصلون إلى تبنين يحتطبون، وفي قلبه مما جرى على رجالة المسلمين شيء عظيم، فرأى أن يقرر قاعدة كمين يرتبة لهم ويأخذهم فيه، ثم بلغه أن ورائهم خيلاً يحفظونهم، فعمل كمينا يصلح للقاء الجميع، ثم أنفذ إلى عسكر تبنين وتقدم إليهم أن يخرجوا في نفر يسير مغيرين على تلك الرجالة، وأن خيل العدو إذا تبعتهم ينهزمون إلى جهة عينها، وأن يكون ذلك صبيحة يوم الاثنين الثامن من جمادى الآخرة، وأرسل إلى عسكر عكا أن يسيروا حتى يكونوا وراء عسكر العدو، حتى إن تحركوا في نصرة أصحابهم قصدوا خيمهم، وركب هو وجحفله سحر يوم الاثنين شاكين في السلاح متجردين ليس معهم خيمة إلى الجهة التي عينها لهزيمة عسكرتبنين، وسار حتى قطع تبنين ورتب العسكر ثانية أطلاب، واستخرج من كل طلب عشرين فارساً من الشجعان الجياد الخيل، وأمرهم أن يتراءوا للعدو حتى يظهر ويناوشوهم وينهزمون بين أيديهم حتى يصلوا إلى الكمين، ففعلوا ذلك، وظهر لهم من الفرنج معظم عسكرهم، يقدمهم الملك، وكان قد بلغهم الخبر، فتعبوا تعبئة القتال، وجرى بينهم وبين هذه السرية اليسيرة قتال شديد، والتزمت السرية القتال، وأنفوا من الانهزام بين أيديهم، وحملتهم الحمية على مخالفة السلطان، واتصل الحرب بينهم إلى آخر النهار، ولم يرجع أحد منهم إلى المعسكر ليخبرهم بما جرى، واتصل الخبر بالسلطان في آخر الأمر، وقد هجم الليل، فبعث إليهم بعوثاً كثيرة، ولما علم الفرنج بأوائل المدد عادوا منهزمين ناكصين على أعقابهم بعد أن جرت مقتله عظيمة من الجانبين، وكان القتلى من الفرنج على ما ذكره من حضر زهاء عشرة أنفس، ومن المسلمين ستة نفر: اثنان من اليزك، وأربعة من

العرب، منهـم الأمير زامل، وكان شابـاً حسناً مقدم عشيرته، وكـان سبب قتله أنـه تقنطرت بـه فرسـه، ففداه ابـن عمه بفـرسه فتقنطـرت به أيضـاً فرسه، وأسرهو وثلاثة من أهلـه، فلما بصر الفرنج بمدد العسكـر قتلوهم خشيـة الاستنقاذ، وجـرح خلـق كثير مـن الطائفتين وخيـل كثيرة، وكـان للسلطـان مملـوك يسمـى أيبك أثخـن بـالجراح، حتـى انـدس بين القتلى وجـراحاتـه تشخب دمـاً، وبات ليلتـه أجمع على تلـك الحالـة الى صبيحة يوم الثلاثـاء فتفقده أصحابه فلم يجدوه معرفـوا السلطان، فأنفذ من يكشف خبـره، فوجـده بين القتلى فحملـوه الى المخيم،وعـافاه الله، وعاد السلطان الى المخيـم يوم الاربعاء عاشر الشهر المـذكور، منصورا فرحاً مسروراً، جزاه الله خيراً

وقال ابـن كثير: وقتل مع زامـل أمير العرب، الأمير حجي بـن منصور ابن ربيعة، والأمير مطرف بن رفيع بن مرى بن ربيعة، وآخر معهم.

ذكر ركوب الأفرنج إلى عكا والنزول عليها ورحيل السلطان إلى قبالتهم:

ولما وصل الخبر إلى السلطان أن العدو قد ركـب نحو عكا، وذلك يوم الأربعـاء ثامـن رجب ـــ وكان قـد اجتمع بصـور من أهـل البلاد التـي أخذها السلطان بـالأمان خلق عظيم حتى صاروا في عـالم لايحصون كثرة وأرسلـوا إلى البحـر يبكـون ويستنجدون، وصـورة المسيـح وصـورة عـربي يضرب المسيـح وقـد أدمـاه، وقـالوا: هـذا نبـي العـرب يضرب المسيـح، فخرجت النسـاء من بيوتهن، ووصل مـن الفرنج في البحر عـالم لايحصون كثرة، وسـاروا إلى عكا مـن صور، ونازلـوها في منتصـف رجب، وضـايقوا عكـا، وأحاطـوا بسورهـا مـن البحر إلى البحـر، ولم يبق للمسلمين اليهـا طريق، فسار إليهم السلطان ونزل قريبـاً من الأفرنج بمرج عكا على تل كيسان.

وقال صاحب النوادر: كتب السلطان إلى سائر أرباب الأطراف بأن يتقدموا إلى العساكر الاسلامية بالمسير إلى المخيم، وقال: سار السلطان بالليل، وأصبح صبيحة يوم الاثنتين الثالث عشر من رجب سائراً إلى عكا من طريق طبرية، إذ لم يكن ثمة طريق تسع العسكر إلاّ هو، وسير جماعة على طريق تبنين يستطلعون العدو ويواصلوه بأخبارهم.

قال: وسرنا حتى أتينا الحولة منتصف النهار، فنزل بها ساعة ثم رحل وسار طول الليل حتى أتى موضعاً يقال له منية صباح يوم الثلاثاء الرابع عشر من رجب، وفيه بلغنا أن الأفرنج نزلوا على عكا يوم الاثنين ثالث عشر رجب، وسار هو جريدة حتى اجتمع ببقية العسكر الذي كان أنفذهم على طريق تبنين، بمرج صفورية، فإنه كان واعدهم إليه، ولم يزل حتى شارف العدو من الخروبة، وبعث بعض العسكر فدخل عكا على غرة من العدو تقوية لمن فيها، ولم يزل يبعث بعثاً بعد بعث حتى حصل فيه خلق كثير وعدد وافر، ورتب العسكر ميمنة وميسرة وقلباً، وسار من الخروبة، وقد كان نزل عليها يوم الاربعاء خامس عشر الشهر، فسار منها حتى أتى تلاً يقال له تل كيسان في أوائل مرج عكا، وأمر الناس أن ينزلوا على هذه التعبئة، وكان آخر الميسرة على طرف النهر الحلو، وآخر الميمنة يقارب تل العياضية، واحتاط العسكر الاسلامي المنصور بالعدو المخذول، وأخذوا عليهم الطرق من الجوانب، وتلاحقت العساكر الاسلامية واجتمعت، ورتب اليزك الدائم والجاليش في كل يوم مع العدو، وحصر العدو في خيامه من كل جانب بحيث لايقدر أن يخرج منها واحد إلاّ ويجرح أو يقتل، وكان معسكر العدو المخذول على شطر من عكا، وخيمة ملكهم على تل المصلبين قريباً من باب البلد، وكان عدد راكبهم ألفي فارس، وعدد راجلهم ثلاثين ألفاً، ومددهم من البحر لاينقطع، وجرى بينهم وبين اليزك مقاتلات عظيمة متواترة والبعوث تتواصل من المسلمين والملوك والأمراء من الأقطار متتابعة، فأول من نزل ووصل الأمير الأجل الكبير تقي الدين صاحب حماه في

جحفله، وتتابعت الامراء والعساكـر الاسلامية، وفي أثناء هذا الحال توفي حسام الدين سنقر الخلاطي باسهال شديد، فأسف عليه المسلمون أسفاً شديداً، فـإنه كان شجاعـاً دينا، ثم إن الفرنـج تكاثروا واستفحل أمـرهـم واستـداروا بعكـا بحيث منعـوا مـن الـدخـول والخروج منها وذلـك يـوم الخميس سلخ رجـب، فلما رأى السلطان ذلك ضاق صـدره وثارت همته العـالية لفتـح الطريـق الى عكا لتستمـر السـابلة إليهـا بالميرة والنجـدة، فاستحضر أمـرائه وأصحاب الـرأي وشاورهم في مضـايقة القـوم، واتفقوا على أن يضايقوا بحيث ينفصل الامر بالكلية او يفتح الطريق إلى عكا.

ذكر قيام الحرب لاجل فتح الطريق:

ولما أصبـح نهار يوم الجمعـة مستهـل شعبان مـن هـذه السنة أصبـح السلطـان على عزم القتـال، فرتـب عسكره ميمنـة وميسرة وقلباً واتفقـوا على أن تكـون الملاقـاة وقت الصـلاة والخطبـاء تخطـب، وهووقـت قبـول الدعـوات، فحملوا حملات عظيمة وهـم كالسـور المحيط مافيـه متسلق، والمسلمـون كالبنيـان المرصوص مـافيه خلـل، وكالحلقـة المفرغـة ماإليهـا مدخـل، فلم يتحـرك الملاعين يوم من مـوضعهم، ودامـت الحرب بينهم وكلما قتـل واحد وقـف آخـر مكـانه حتـى دخـل الليـل وحجز بينهـم، فأصبحـوا يوم السبـت على الحرب كما أمسوا، واشتـدت الحرب أكثر مما كان، وأنفـذ السلطان طائفـة من شجعان المسلمين إلى البحـر من شمالي عكا، فلم يكن هنـاك خيم، لكن عساكرهم ممتده من كـل ناحية، فحمل المسلمون عليهم حملة صادقة فـانهزموا الى تل المصلبين نحو القبة، وأخلوا ذلك الجانـب، وأصبح الطـريق الى عكـا من بـاب القلعة المسماة بقلعـة الملـك الى باب قـراقوش الـذي جدده، وصـار الطـريق مهيعـا يمر فيـه السـوقـي ومعه الحوائج، ويمـر بـه الـرجـل الواحـد والمرأة واليـزك بين الطريق وبين العـدو، ودخل السلطان رحمه الله في ذلك اليـوم عكا، ورقا على السـور ونظر إلى عسكـر العدو، وفـرح المسلمـون بنصر الله، وخـرج

العسكر الذين كانوا بها الى خدمة السلطان، ثم استدار العسكر الاسلامي حول عسكر الافرنج وأحدقوا بهم من كل جانب.

ذكر الوقعة العظمى:

ولما كان يوم الاربعاء العشرين من شعبان من هذه السنة برزت الافرنج بأجمعهم وضربوا مع السلطان مصافاً، وحملوا على القلب فأزالوه، وأخذوا يقتلون في المسلمين الى ان بلغوا خيمة السلطان، فانحاز السلطان إلى جانب وانضاف إليه جماعة، وانقطع مدد الفرنج، واشتغلوا بقتال الميمنة، فصاح السلطان: ياللاسلام، فركبت الناس بأجمعهم، وحمل السلطان على الفرنج الذين خرقوا القلب، وانعطف عليهم العسكر فأفنوهم قتلاً، وكان كل واحد من المسلمين قتل أربعين أو خمسين من الفرنج، وكان قتلى الفرنج تقدير عشرة آلاف، ووصل المنهزمون من المسلمين بعضهم الى طبرية، وبعضهم وصل الى دمشق، ولم يكن وقف من المسلمين ثابتين نحو ألف نفس، فردت مائة ألف، وجافت الارض بعد هذه الوقعة من قتلى الفرنج، فلحق السلطان مرض، وحدث له قولنج، فأشار عليه الأمراء بالانتقال من ذلك الموضع، فوافقهم ورحل عن عكا رابع عشر رمضان الى الخروبة، فلما رحل السلطان تمكن الفرنج حينئذ من حصار عكار، وانبسطوا في تلك الارض، ولم يعلم السلطان أن ذلك كان من أكبر المصالح للعدو المخذول فإنهم اغتنموا هذه الفترة فحفروا حول مخيمهم خندقا يجمع جيشهم من البحر الى البحر محدقاً، واتخذوا من ترابه سوراً شاهقاً، وجعلوا له أبوابا يخرجون منها إذا أرادوا، وتمكن الأمر وقوي الخطب.

وقال صاحب النوادر: واصطفوا خارج خيمهم قلباً وميمنة وميسرة، وفي القلب الملك، وبين يديه الانجيل محمولا مستوراً بثوب أطلس مغطى، يمسك أربعة أنفس أطرافه، يسيرون بين يدي الملك، وامتدت

الميمنة في مقابلة الميسرة التي لعسكر الاسلام من أولها الى اخرها ، وكذا امتدت ميسرتهم في مقابلة ميمنة المسلمين الى اخرها ، وملكوا رؤوس التلال ، وكان طرف ميمنتهم إلى النهر وطرف ميسرتهم إلى البحر ، والسلطان رحمه الله رتب عسكره في مقابلتهم ، فوقف هو في القلب ، وفي الميمنة ولده الملك الافضل ، ثم ولده الظاهر ، ثم عسكر المواصله يقدمهم ظهير الدين بن البلنكري ، ثم عسكر ديار بكر في خدمة قطب الدين بن نور الدين صاحب الحصن ثم حسام الدين بن لاجين صاحب نابلس ، ثم الطواشي قايماز النجمي وجموع عظيمة متصلين بطرف الميمنة وكان في طرفها الملك المظفر تقي الدين بجحفله وعسكره ، وهو مطل على البحر ، واما أوائل الميسرة فكان مما يلي القلب سيف الدين علي المشطوب وعلي بن أحمد من كبار ملوك الأكراد ومقدميهم ، والأمير مجلي وجماعة المهرانية والهكارية ومجاهد الدين يرنقش مقدم عسكر سنجار ، وجماعة من المماليك ، ثم مظفر الدين بن زين الدين بجحفله وعسكره ، وأواخر الميسرة كبار المماليك الاسدية كسيف الدين يازكج ورسلان بغا ، وجماعة الاسدية الذين يضرب بهم المثل ، وفي مقدم القلب الفقيه عيسى وجمعه.

وهذا والسلطان يطوف على الاطلاب بنفسه ، يحثهم على القتال ويدعوهم إلى النوال ، ويرغبهم في نصرة دين الله ولم يزل القوم يتقدمون والمسلمون يقدمون حتى علا النهار ومضى منه مقدار أربع ساعات ، وعند ذلك تحركت ميسرة العدو على ميمنة المسلمين ، وأخرج لهم الملك المظفر الجاليش ، وجرى بينهم قلبات كثيرة وتكاثروا على الملك المظفر ، وكان في طرف الميمنة على البحر ، فتراجع عنهم شيئا اطماعا لهم لعلهم يبعدون عن أصحابهم فينال منهم غرضا ، فلما رآه السلطان قد تأخر ظن به ضعفاً ، فأيده بأطلاب عدة من القلب حتى قوى جانبه ، وتراجعت ميسرة العدو ، واجتمعت على تل مشرف على البحر ، ثم جاءت منهم حملة على عسكر ديار بكر ، وكانت بهم غرة عن الحرب ،

فلـم يصبروا وانكسروا كسرة عظيمـة ، وسرى كسرهم إلى انكسـار معظـم الميمنة واتبـع العدو المنهزمين إلى العياضيـه ، وصعدت طائفـة منهم إلى خيـم السلطان فقتلـوا طشـت دار كان هنـاك ، وفي هـذا اليوم استشهـد اسماعيل المكبـس وابن رواحـة ، وأما الميسرة فـإنها ثبتت ، فـإن الحملة لم تصـادمها ، وأمـا السلطـان فإنـه أخـذ يطـوف على الأطلاب ينهضهـم ويحثهم على الجهاد وينادي فيهم يالـلاسلام، ولم يبق معه إلا خمسة أنفس وهو يطـوف على الاطلاب ويخرق الصفوف، ثم أوى الى تحت التـل الذي كان عليـه الخيام وأما المنهزمـون فإنهم بلغوا الى الاقحوانـة فقطعوا جسر طبرية، وقوم وصلـوا إلى دمشق، وأما المتبعون فـاتبعوهـم إلى العياضيـة ثم رجعوا عنهـم، وقتلوا في الطريـق جماعة مـن الغلمان والخربندية والسـاسة المنهزمين، ثـم جاءوا على رأس السـوق فقتلوا جماعـة، وقتل منهـم جماعة أيضاً، فإن السوق كان فيـه خلق عظيم ولهم سلاح، ثم لما رأوا أن الميسرة الاسـلامية ثـابتـة علمـوا أن الكسرة لم تتم فعـادوا منحـدريـن من التـل يطلبون عسكرهم، وأما السلطان فإنـه كان واقفاً تحت التل ومعه نفريسير، وهـو يجمع النـاس ليعودوا إلى الحملـة على العدو، ولما رآهـم نازلين مـن التـل أرادوا لقـاءهم فصبرهـم السلطـان إلى أن ولـوا ظهورهـم، فحملـوا عليهم، وعـاد الملك المظفـر بجمعه من الميمنـة وتراجـع الناس مـن كل جـانب فنصر اللـه الاسـلام، وظـل الناس في قتـل وضرب وجـرح الى ان اتصل المنهـزمون الى عسكر العـدو، ثم رجـع الناس عنهم السـالمون بعد صلاة العصر يخوضـون في القتلى وهم فـرحون ومسرورون، وعـاد السلطان إلى خيمته في ذلـك اليوم فـرحاً مسروراً، فـافتقدوا المسلمين فكـان مقدار مافقد مـن الغلمان والمجهولين مائة وخمسين نفراً، ومـن المعروفين استشهد ظهير الـدين أخـو الفقيه عيسـى، وكان قـد وقع مـن فرسـه وقتل عليـه جماعة من أقـاربه، وقتل أيضاً الامير مجلي، هذا الـذي قتل من المسلمين، وأما في العدو فحزر سبعة آلاف نفر.

قال الـراوي: ورأيتهم قد حملوا إلى شـاطىء النهر ليلقوا فيـه فحزرتهم

بـدون سبعـة آلاف، ثـم إن السلطـان سـارع في الكتـب والـرسـل في رد المنهزمين مـن المسلمين حتى ردوا البعـض من عقبـة فيق، وكـان الغلمان والحواشي نهبـوا أموال النـاس، فـأمر السلطـان بجمـع ذلـك كله، وأمـر بـالنداء بـالـوعيد والتهـديـد، فأحضروا شيئـاً كثيراً حتـى صار بين يـدي السلطان مثـل التل، ثم أمـر بردها على أصحـابها، وصار من عـرف شيئاً واعطى عـلامته أعطـاه، وكان ذلـك يوم الجمعـة الثالـث والعشرين مـن شعبـان، ثم تحول السلطـان الى موضـع يقال لـه الخروبة، وهـو موضـع قريب من مكان الوقعة، ونزل هنـاك يوم السبت الرابع والعشرين منه، ثم في سلخ الشهـر استحضر أعيان عسكره وقـال: اعلموا أن هـؤلاء الكفار قد نزلـوا في بلادنا، ووطئوا أرض الاسلام، ولابد مـن الاهتمام بقلع هؤلاء، والله قد وجب علينا ذلك، وأنتم تعلمـون أن هذه عساكرنا، وليس وراءنا نجدة ننتظرهـا سوى الملك العادل، وهـو واصل انشاء الله، وهـذا العدو إن بقي وطـال أمره إلى أن ينفتح البحر، جـاءهم مدد عظيم، والـرأي كل الرأي عندي مناجزتهم، فليتكلم كل منكـم ماعنده في ذلك ، وكان ذلك في ثـالث عشر تشريـن مـن الشهور الشمسيـة، فـامتحضت الآراء، ثـم اتفقـت على أن المصلحـة تـأخير العسكر إلى الخروبـة لتتراجـع أنفسهـم إليهـم، فقـد أخذ منهـم التعـب واستـولى على نفوسهـم الضجـر، ولهم خمسون يـوماً تحت السـلاح وفوق الخيـل، والخيل قـد ضجرت مـن عرك اللجم وسئمت نفـوسها ذلك، ويصل الملك العادل ويشـاركنا في الرأي، فوافقهـم السلطان على ذلك لكـونه قد حصل لـه مرض من كثـرة ماحمل على قلبه، ومـاعاناه مـن التعب، وحمل السلاح، فـأقام هناك ينتظـر أخاه الملك العـادل إلى يوم الاثنين عـاشر رمضان، ثـم إن السلطان أرسـل الى مصر يطلب أخاه العـادل ويستعجل الاسطول، فوصـل إليه الاسطول في خمسين قطعة مـع الامير حسام الديـن لؤلؤ، وكـان مظفراً شجاعـاً، وظفر ببطسـة للفرنـج فأخـذها ودخـل بها إلى عكا، فقـويت قلـوب المسلمين لذلك، وكذلك وصل الملك العادل بعسكر مصر في منتصف شوال.

وقال العماد: وكان وصول الاسطول المنصور من مصر يوم الثلاثاء عشر من ذي القعدة في المراكب المستعدة بالبأس والشدة، وكانت عدته خمسين شينيا، فأول ماظفر الاسطول المنصور بشيني للفرنج عظيم الشان، فقتل مقاتلته، فوقعت بطشته الكبرى ببطسة كبيرة تشتمل على ميرة وذخيرة واسعة، وتفرقت سفن الفرنج أيدي سبأ في مدة هذا الحصار، ووصل إلى الافرنج في مركب ثلاثمائة امرأة فرنجية مستحسنات الوجوه، اجتمعن من الجزائر، وسبلن أنفسهن لله تعالى بزعمهن، والتزمن أن لايمنعن أنفسهن ممن أراد بطانتهن من مقاتلي الفرنج، وزعمن أن هذه قربة للمسيح مافوقها قربة لاسيما إذا كان ممن اجتمعت فيه عزبة مع اقدام على القتال.

ذكر وصول خبر ملك الالمان لعنه الله:

وفي رمضان من هذه السنة وصل من حلب كتب من ولده الملك الظاهر غازي يخبر فيها أنه قد صح أن ملك الالمان قد خرج إلى قسطنطينية في عدة عظيمة، قيل مائتا ألف، وقيل مائتان وستون ألفاً يريدون البلاد الاسلامية، وقيل إنهم في ثلاثمائة ألف مقاتل، وفيهم ستون ألف فارس مدرع مقنع، وجاءت كتب أيضاً من صاحب قلعة الروم، مقدم الارمن يبدي نصيحة واشفاقاً وتخوفاً على البلاد واحتراقاً، ويقطع ان الواصلين في كثرة، وأن الناهضين إلى طريقهم في عثرة، وأبرق في كتبه وأرعد، وأبدع بخطابه وأبعد، ولاشك إلى دينه النجس مائل، وبملاءة أهل ملته قائل، ولما وصل هذا الخبر كاد الناس يضطربون على أنهم يصدقون ويكذبون، واشتد ذلك على السلطان، وعظم عليه، ورأى استنفار الناس الجهاد واعلام الخليفة بذلك.

قال قاضي القضاة بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم صاحب النوادر: استندبني السلطان لذلك وأمرني بالمسير إلى صاحب

سنجار، وصاحب الجزيرة، وصاحب الموصل، وصاحب إربل، واستدعاهم إلى الجهاد بأنفسهم وعساكرهم ، وأمرني بالمسير إلى بغداد لاعلام الخليفة الناصر لدين الله.

قال: وكان مسيري في الحادي عشر من رمضان من هذه السنة ويسر الله الوصول إلى الجماعة المذكورين فأجابوا، وسار عماد الدين زنكي صاحب سنجار بعسكره وجمعه في تلك السنة، وسار ابن أخيه سنجر شاه صاحب الجزيرة بنفسه يجر عسكره، وسير صاحب الموصل عز الدين ابنه علاء الدين خرم شاه بمعظم عسكره، وسار صاحب إربل بنفسه وعسكره.

قال: وحضرت الديوان السعيد ببغداد، وأعلمت الخليفة بذلك، ووعد بكل جميل، ثم عدت إلى خدمة السلطان وكان وصولي إليه يوم الخميس خامس ربيع الأول من سنة ست وثمانين وخمسمائة، وكانت العساكر قد تجهزت فسبقتهم وعرفته باجابتهم بالسمع والطاعة، وتأهبهم للمسير، فسرّ بذلك وفرح فرحاً شديداً، وانسلخت هذه السنة والحال على ماهو عليه، ولاملجأ من الله إلا إليه.

ذكر بقية الحوادث:

منها أنه في محرم أمر الخليفة أن يعهد الى ولده أبي نصر، وأن أمير المؤمنين أنعم النظر للمسلمين بتفويض عهده والإمامة من بعده إلى ولده عدة الدنيا والدين أبي نصر محمد، لما علم من عقله الراجح وهديه الواضح، وبعث الخليفة مع ضياء الدين عبد الوهاب بن علي الصوفي، ويعرف بابن سكينة، نسخاً إلى صلاح الدين في الخطبة، وبعث إلى جميع الآفاق، فالتقاه السلطان وخطب له على المنابر، وكان الخطيب بدمشق عبد الملك بن زيد الدولعي، وبعث السلطان جواب الرسالة مع ضياء

الـديـن بـن الشهـرزوري، وبعث معـه بصليـب كـان على صخـرة بيـت المقدس، فجعل على باب النوبي تطأه الاقدام ويهان، وهو بحاله إلى هلـم جرا.

وقال ابـن كثير: وفي صفر قدم من جهـة الخليفة رسل يعلمـون صلاح الديـن بولاية العهـد إلى عدة الديـن الملقب بالظـاهر ابن الامـام الناصر لديـن الله، فـأمر السلطـان لخطيب دمشـق أن يخطب لـه بعد الخليفـة، فخطب يوم الجمعـة ثالث صفر، ونثر عليـه الدنانير والدراهـم، ثـم جهز السلطان مع الرسل تحفاً عظيمة وهدايا سنية، وأرسل بأسارى من الفرنج على هيئتهم في حال حـربهم، وأرسل بصليب الصلبوت ودفـن تحت عتبة باب النوبي من دار الخلافـة فكان يداس بعدما كان يقبـل ويباس، وصار يبصق عليـه بعدمـا كان يسجـد عليه، وكـان هذا الصليـب من نحـاس مطلياً بالذهب.

ومنها أن السلطـان صلاح الـدين ولى دمشـق بدر الـدين مـودود أخا العادل لأمه شحنكية دمشق.

ومنها أنه في جمادى الاولى ولـد للملك العزيز ولـد سماه محمداً، ولقبه ناصر الـدين، وهو الـذي اجتمع عليه أصحـاب العزيـز عند موتـه سنة خمس وتسعين وخمسمائة.

ذكر من توفي فيها من الأعيان:

الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري، من أصحاب أسد الدين شيركوه، دخل معه إلى مصر وحظي عنده، ثم كان مـلازما للسلطان صلاح الدين يـوسف حتـى تـوفي في ركابـه، وكـان ممن تفقـه على الشيـخ أبي القاسـم البزري الجزري، وكان الفقيه عيسى من الفضلاء والامراء الكبراء.

وقال العماد: توفي الفقيه عيسى بمنزلة الخروبة سحرة يوم الثلاثاء تاسع ذي القعدة لسنة خمس وثمانين وخمسمائة، وحمل من يومه إلى القدس فدفن به، وكان من الاعيان، ومن مقربي السلطان.

وفي المرآة: وكان لقبه ضياء الدين، وحضر فتوح القدس والفرات، وكان صلاح الدين يحبه ويحسن الظن به ويستشيره، وكأن الله قد أقامه لقضاء حوائج الناس، ويفرج عن المكروبين مع الورع والفقه...

الأمير موسك بن جلودا والد الامير عماد الدين داود بن موسك، ابن خال السلطان صلاح الدين، حفظ القرآن وسمع الحديث وكان محسناً إلى الناس يقضي حوائجهم ويتلطف بهم، وكان ملازماً للسلطان في غزواته لم يتخلف عنه في مشهد منها، وكان ديناً صالحاً جواداً مرض بمرج عكا مرضاً شديداً، فأمره السلطان أن يمضي إلى دمشق يتطبب، فجاء إلى دمشق فتوفي بها ودفن بقاسيون رحمه الله، وكانت وفاته في شعبان من هذه السنة.

الأمير حسام الدين طمان ــ صاحب الرقة ـ كان شجاعاً جواداً محسناً محباً للخير، كثير الصدقات مائلاً إلى العلماء والفقهاء، بنى مدرسة بحلب لاصحاب أبي حنيفة رضي الله عنه، وكان السلطان صلاح الدين يحبه، ويعتمد عليه، ولما احتضر والسلطان في مقابلة الافرنج، طلب حصانه وزرديته ليركب ويشهد من حرصه على الغزاة، فلم يقدر لضعفه، فجعل يبكي ويتأسف على موته على فراشه، وكان من شجعان المسلمين، توفي في ليلة النصف من شعبان، ودفن في تل العياضية، وحزن السلطان والمسلمون عليه.

الأمير سنقر الخلاطي: توفي في ليلة الاثنين السابع والعشرين من رجب من هذه السنة، وذلك أيضاً حين كان السلطان على عكا رحمه الله.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السادسة والثمانين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله، والسطان صلاح الدين مقيم بعسكره بمنزلة الخروبة، وكل من الملك العادل والملك الأفضل والملك المظفر في خيمته المضروبة، وعكا محصورة، وجموع الفرنج على حصارها محشورة، وهلك من الفرنج المحاصرين في الوقائع خلق كثير لان القتال لم ينقطع والتواقع لم يرتفع.

ذكر وقعة الرمل:

كان السلطان صلاح الدين رحمه الله يركب أحياناً للصيد، ولكن لايبعد من المخيم، وركب يوماً في صفر على عادته، فتصيد وطاب له الصيد فأبعد، واليزك على الرمل وساحل البحر من الميسرة على حذرهم واحتياطهم فإذا الفرنج خرجوا في عدد لايحصى وقت العصر فتسامع المسلمون، فزحفوا إليهم، وحملوا عليهم وطردوهم إلى خيامهم من خلفهم وأمامهم، ولم يزل بينهم حملة وردة ورمية حتى فني النشاب، فلما علم الفرنج بذلك حملوا حملة واحدة ردوا بها المسلمين إلى النهر، فثبت من العادلية في وجوه القوم صف مرصوص البنيان، فوقع بينهم قتا ل عظيم واستشهد جماعة من الشجعان وذلك لانهم ردوا الفرنج إليهم فلقوا فرساناً وصرعوا شجعاناً، ونزلوا واشتغلوا بالغنيمة، فحملت الفرنج عليهم حملة منكرة، فأشغلتهم عن الوثوب والانتهاض، وأظلم الليل، وافترق الفريقان عن قتلى، وكان ممن استشهد من المسلمين الحاجب ايدغمش المجدي رحمه الله ومملوك للسلطان كان يدعى أرغش، وكان خيراً صالحاً، ومن عجائب هذه الواقعة أن مملوكاً للسلطان يسمى قرا سنقر كان من الأبطال المشهورين عثر به جواده فصار راجلاً، فقبض

عليه مـن أسره وسحبه من شعره، وجـاء آخر وسل سيفه عليـه ليضربه، فضرب يد قـابض شعره فسيبه، واشتـد يعدو وهم يعـدون وراءه ليقتلوه، وفاتهم بعون الله تعالى.

ذكر فتح شقيف أرنون:

وفي يوم الاحـد خامس عشر ربيـع الاول تسلم صـلاح الدين بـالامان شقيف أرنـون، وكان الحصـار مستمراً عليـه من السنـة الماضية، وكـان السلطـان حبـس صاحبهـا أرنـاط في دمشـق على مافصلنـاه، فلما تسلـم السلطان شقيـف أرنون أفرج عن أرنـاط، وصار الى صور، وكان هـذا من أدهى الفـرنج وأخبرهـم بأيـام الناس، كما قـرأ في كتب الحديـث وتفسير القرآن، ومع هذا كان غليظ الجلد كما في القلب قبحه الله.

وفي النـوادر: لما كـان التـاريـخ المذكــور علـم الفـرنـج المستحفظـون بـالشقيف أنـه لاعـاصـم لهم من أمـر اللـه، وأنهم أخـذوا عنوه، فطلبـوا الامان، وكـانوا علموا مـن حال صاحبهم أنـه قد عذب أشـد العذاب، فاستقـرت القاعـدة على أن يطلق صاحبهـم وجميع من فيـه من الفـرنج، ويترك مـافيـه من أنـواع المال والـذخـائر، فـأمنهم السلطـان على ذلـك وسلموا الشقيف، وعاد صاحبهم والفرنج الذين كانوا به إلى صور.

ذكر حال عكا وكيفية الوصول إليها:

كان السلطـان قد قوى عكا بتسيير الغـلات والاقوات إليها، ومـلأها، بـالذخـائر والاسلحة، ثـم لما انقضى الشتـاء وانفتح البحـر، وحان زمـان القتال كتب السلطـان إلى العساكر يستدعيهم من الاطـراف، ولما تواصل أوائل العساكر، وقوي جيش الاسلام رحـل السلطان رحمه الله نحو العدو فنزل بتل كيسان، وذلك في الثامـن عشر من ربيع الاول من هذه السنة،

ورتب عساكره، وكان خبر البلد قد انقطع عن السلطان، وامتنع عليه دخول البلد والمدد، فعند ذلك اشتد العوامون بالسباحة، وكانوا يحملون نفقات الاجناد على أوساطهم ويخاطرون بأنفسهم، ويحملون كتباً وطيوراً ويعودون بكتب وطيور، وكان أهل عكا يكتبون إلى السلطان، ويكتب السلطان إليهم على أجنحة الحمام ويعرف الاحوال بذلك.

وقال ابن كثير: فلما انحسر الشتاء وانكسر البرد، وانتشر الربيع أمر السلطان باجتماع العساكر وكانوا قد تفرقوا فتوافوا، فكان أول من وصل الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص والرحبة، وسابق الدين عثمان صاحب شيزر، وعز الدين ابراهيم، ووفد معهم جموع من الاجناد والاعيان وحشود من العرب والتركمان، ثم رحل السلطان ونزل على كيسان في التاريخ المذكور، وترتبوا في النزول ميمنة وميسرة وقلباً، وكان الملك الافضل في أول الميمنة وأخوه الملك الظاهر في أول الميسرة.

ذكر وصول رسول الخليفة: لما كان يوم الاثنين السادس عشر من ربيع الأول من هذه السنة وصل رسول من بغداد من عند الخليفة الناصر، وهو الشريف فخر الدين نقيب مشهد باب التبن ببغداد، وذلك في جواب رسالته مع ضياء الدين الشهرزوري، وأرسل الخليفة معه أحمالا من النفط والرماح الخطية، ومعه نفاطة متقنون لهذه الصناعة غاية الاتقان، ومرسوم بعشرين ألف دينار، وذلك في رقعة من الديوان العزيز تتضمن الاذن للسلطان في أن يقترض عشرين ألف دينار ينفقها في الجهاد ويحيل بها على الديوان العزيز، فقبل السلطان جميع ماوصل واستعفى عن الرقعة.

وفي المرآة: ومع الرسول توقيع بعشرين ألف دينار تقترض من التجار على الخليفة، فشق على السلطان، وقال: أنا في يوم واحد أخرج مثل هذا

وأضعافه، وما أنـا مضرور ، ورد عليه جميع ماجاء به، فـأشار عليه بعض أصحـابه بـأخذ النفـط للغزاة فـأخـذه، ورد التوقيـع، وقال: يـرحم اللـه العاضـد وصل إليّ منـه في عشرين يومـا بمقام الفـرنج على دميـاط ألف ألف دينار ومعها عروض.

ذكر وصول الأمراء:

وفي يوم الثلاثاء الثاني عشر من ربيع الآخـر قدم عماد الدين زنكي بن مودود بـن زنكي، صاحب سنجـار بمن استنهضه من العسـاكر، في جمع عظيم، ولقيه السلطان وأكـرمه غاية الاكرام، ورتب لـه العسكر في لقائه، فكان أول مـن لقيه من العسكـر المنصور قضاتـه وكتابه، ثـم لقيه أولاده بعد ذلـك، ثم لقيه السلطـان، ثم سار حتـى أوقفه على العدو، ثـم عاد معه إلى خيمتـه وأنزله عنـده، وكان صنع لـه سماطاً لائقاً بـه، فحضر هو وجميع أصحـابه، وكان قد بـالغ في اكرامه حتـى بسط له طراحـة مستقلة إلى جانبه، وبسط لـــه ثوباً أطلس عند دخوله، ثم ضربت له خيمة على طـرف الميسرة عند جـانب النهـر، وقدم إليـه عشرة من الخيـول العربيـة، وخمس عشرة بقجة قماش.

ثم وصـل من بعـده ابن أخيـه معز الـدين سنجـرشاه بـن غازي بـن مـودود، صاحـب الجزيرة، بعسـاكره الكثيرة، وذلـك يوم الاربعـاء سابـع جمادى الاخرى، ولقيه السلطان وأكرمه وأنزله في خيمة ضربت إلى جانب عمه عماد الـدين، ثـم وصل الملـك السعيد عـلاء الديـن خسروشاه ابـن صاحـب الموصل عز الديـن مسعود بن مـودود، وذلك يوم الجمعة تـاسع جمادى الاولى، وكـان أبوه أرسلـه نـائباً عنـه مقـدمـاً على عسكره، ففـرح السلطان بقـدومه وتلقـاه من بعـد وأنزلـه عنده في خيمـة ضربت لـه بين خيام ولديه الملـك الافضل والملك الظاهر، وقدم له تحفـاً سنية، وكان ابنه الملك الظاهر غازي صاحب حلب والملك مظفر الدين بن علي كوجك،

صاحب حران، قدما قبل احتراق الابراج التي صنعها الافرنج.

وقضيتها أن البحر لما انفتح تواترت الافرنـج والنصارى من كل جزيرة ينصرون أصحابهم ويمدونهم بـالقوة والميرة، وعملت الافرنج ثلاثـة أبرجة خشب وحديـد عليها جلود مسقاة بـالخل والخمر لئلا يعمل فيهـا النفط والنـار، وطمـوا خنـدق عكـا، وسحبـوا الابـراج على العجـل إلى السـور، فأقبلت أمثـال الجبال، فأشرفت على البلد، وفي كل بـرج خمسمائة مقاتل، فـأيـس المسلمون مـن البلـد، وقـد حيـل بينهم وبين السلطـان، وركـب السلطان والعسـاكر واجتهدوا في الوصول إلى البلد، فلم يقدروا ورمـاهم الـزراقون الـذين في البلـد بـالنفط، فلـم يحترق منهـا شيء، فأهـم أمرهـا المسلمين وكانوا عليهـا خائفين، فأعمل السلطان حيله وفكـره في احراقها واهلاكها، فـاستحضر النفاطين ووعدهم الاموال الجزيلة، فـانتدب شاب نحـاس من دمشـق يعـرف بعلي، عـريف النحـاسين، والتـزم بـاحراقهـا واهـلاكها، فـأخذ النفـط الابيض، وخلـط إليـه أدوية عـرفها، وغـلاه في ثلاث قـدور من النحاس حتـى صار ناراً تتأجـج، ورمى كل بـرج منها بقدر من تلك القـدور بالمنجنيق من داخل عكا، فأحـرق الابراج الثلاثة باذن اللـه تعالى، حتـى صارت نـاراً لها ألسنة في الجو متصـاعدة، فصرخ المسلمـون صرخـة واحـدة بـالتهليـل والتكبير واحترق في كـل بـرج مـن مقاتلتهـم سبعين كفوراً، ﴿وكـان يومـاً على الكافـرين عسيراً﴾ [الفـرقان ٢٦] وذلك يوم الاثنين الثامن والعشرين مـن ربيع الأول من هذه السنة، وكانت الفرنج قد تعبوا فيها سبعة أشهر فاحترقت في يوم واحد.

وفي المرآة: وكان هـذا الشاب بعكـا ليس لـه في الديـوان اسم، وكـان عارفاً بـالنفط والحريق، وقال لقـراقوش: انصب إليّ منجنيقاً أحـرق هذه الأبراج، فقال له: قـد عجز الصناع فمن أنت؟ فقال: قـد عملت قدوراً لله تعالى، وأنا لاأريد منكم شيئـاً، ومايضركم أن أرمي بها في سبيل الله فإن نفعت، وإلا فاحسبني واحداً منهم، فقال قراقوش: مـايضرنا ذلك،

ثم نصب لـه المنجنيق، وكان قد هيـأ تلك القدور، فرمـى قدرة واحدة في برج فـاحترق بمن فيه، ثـم فعل ذلك بـالثاني والثالـث، فكبر المسلمون، وسمع السلطـان فكبر والعساكر وفـرح قراقـوش والأمراء وطموه بـالخلع والاموال، فلم يأخـذ شيئاً، وقال: أنا فعلت هذا لله تعـالى ولم يأخذ عليه شيئـاً من الـدنيا، وكـان السلطان أيضـاً قـد عرض عليـه العطية السنيـة فامتنع من قبـولها، وقال: إنما عملت هذا ابتغاء وجه اللـه فلا أريد منكم جزاء ولاشكوراً.

ذكر وصول الاسطول من مصر:

وكان السلطـان قد أمر بتعمير اسطـول آخر من مصر، تصـل فيه الميرة والذخير والعدد الكثيرة، فلما كان ظهر يـوم الخميس ثامن جمادى الاولى ظهـر الاسطول فـركب السلطـان في جحافلـه ليشغـل الفرنـج عن قتـال الاسطول، وعمر الفـرنج أيضاً اسطولاً، وصفـوا شوانيه على البحر عـرضاً وطولاً، وأرادوا أن يـلاقوا الاسطـول المنصور، فجـاءت مراكـب الموحديـن ونطحت مـراكبهم وطحنتهـا، وأخذ المسلمـون لهم مركبـاً، وأخذ الافـرنج للمسلمين مركبـاً وكان التقصير مـن الرؤسـاء، واتصل الحرب في البر إلى حين غروب الشمـس، وعاد المسلمون مسرورين، وقتـل من الافرنـج عدد كبير لعنهم الله.

وقـال القـاضي بهاء الـديـن رحمه اللــه: التقـى الاسطـولان في البحـر والعسكران في البر، واضطرمـت نار الحرب، وباع كل فريق روحـه براحته الاخـرويـة، ورجح حيـاتـه الابـدية على حيـاتـه الـدنياويـة، وجـرى بين الاسطولين قتـال شديد أفصح عـن نصرة الاسطول الاسلامي، وأخـذ منه شيني وقتـل من فيه، ونهب جميـع مافيه وظفر العـدو أيضاً بمركـب كان واصلاً من قسطنطينة، ورحل الاسطـول المصري إلى عكا، واتصل القتال بين العسكريـن من خارج البلد إلى أن حجـز بينهما الليل، وقد قتلـوا من

الافرنج خلقاً كثيراً، إلا أنهم قاتلوا في ثلاثة مواضع في البحر والبر، ومن داخل عكا.

ذكر قصة ملك الالمان:

صح الخبر أن ملك الالمان عبر من قسطنطينية الخليج، وأنه وصل بجمعه إلى مضايق صعب عليه العبور، فقيل إنهم أقاموا في قفار ومواضع صعبة شهراً عدموا فيها الطعام ولم يجدوا بها إلا ضراً، وكان التركمان الأوجية على طريقهم يمنعون.شريعتهم، فاضطروا إلى المقام بغير زاد، فصاروا يذبحون خيولهم ويأكلونها ويكسرون قنطارياتهم لفقدان الحطب ويشعلونها، فترجلت منهم ألوف، وكان ذلك في البرد الشديد وزمان الثلج والجليد، وعدموا الدواب لحمل الاثقال، ونقلوا عدد الرجال فدفنوا من ذلك شيئاً كثيراً، وأحرقوا منها، وكان ظنهم أنهم إذا عادوا أخذوا مادفنوه، فأخذ المسلمون مادفنوه، وكانوا في عدد كثير، فما أثر فيهم ذلك ولاكسرهم عن مقصدهم ومازالوا يسيرون حتى بلغوا إلى بلاد صاحب الروم قونية وغيرها وهو قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن (سليمان بن) قتلمش بن سلجوق.

وفي المرآة: وكانوا في ستمائة ألف مقاتل جاءوا من فرنجة، فخاف منهم ملك القسطنطينية فقالوا له: لاتخف نحن ماجئنا إلا لنخلص القدس وصليب الصلبوت، ونملك بلاد المسلمين، وكان بين السلطان صلاح الدين وبين ملك قسطنطينية مراسلة ومكاتبة، وكان وصل منه رسول إلى السلطان بمرج عيون في رجب سنة خمس وثمانين وخمسمائة وجواب رسول كان أنفذه السلطان إليه بعد تقرير القواعد، وإقامة قانون الخطبة في جامع في قسطنطينية، وكانت الخطبة أقيمت وأكرم الرسول اكراماً زائداً، وكان السلطان قد أنفذ مع الرسول خطيباً ومنبراً وجمعاً من المؤذنين والقراء، وكان يوم دخولهم القسطنطينية يوماً عظيماً، ولما رقا

الخطيب المنبر حضر هناك جمع كثير من التجار والمسلمين مقيمين بها، وأقام الخطيب الدعوة العباسية وبعد ذلك كله جاء رسول صاحب القسطنطينية الذي ذكرناه ومعه ترجمان يترجم، وهو شيخ حسن الوجه وعليه زيهم الذي يختص بهم، ومعه كتاب مختوم بالذهب دون عرض كتاب بغداد مترجم في ظاهره وباطنه بسطرين بينهما فرجه وضع فيها الختم من الذهب المطبوع كما يطبع الخاتم في الشمع، وعلى الختم صورة الملك وصورة السطرين المذكورين:

«من ايتاكيوس الملك المؤمن بالمسيح الاله المتوج من الله، المنصور العالي أبداً، فقتوس المدبر من الله، القاهر الذي لايغلب، ضابط الروم بذاته انكليوس.

إلى النسيب سلطان مصر صلاح الدين».

وأما الذي في باطن الكتاب فإنه يتضمن اظهار المحبة والمودة، ثم ذكر خبر ملك الالمان، وقال: «لاتحمل على قلبك منهم، فإن إدبارهم على قدر نيتهم وآرائهم، وإنهم قد خسروا كثيراً من الاموال والدواب والرجال وبلغوا بالشدة، وقد تخلصوا من أجناد بلادي بالغصب، وقد ضعفوا بحيث أنهم لايصلون الى بلادك، وإن وصلوا كانوا ضعافاً في شدة بعد شدة».

وأكرم السلطان رسوله وأقام بحقه كما هو العادة بين الملوك.

ووصل أيضاً كتاب إلى السلطان من مقدم الارمن، وهو صاحب قلعة الروم التي على أطراف الفرات، وصورته: «كتاب الداعي المخلص الكاغيوس: مما أطالع به علوم مولانا ومالكنا السلطان الناصر جامع كلمة الايمان، رافع علم العدل والاحسان صلاح الدنيا والدين، سلطان

الاسلام والمسلمين أدام الله إقباله وضاعف جلاله وصان مهجته وكماله، وبلغه نهاية آماله بعظمته وجلاله.

وأما أمر ملك الالمان فإنه دخل بلاد الهنكر غصبا، وأذعن له ملك الهنكر ودخل تحت طاعته، وأخذ من ماله ورجاله مااختار، ثم إنه دخل أرض مقدم الروم وفتح البلاد ونهبها وأقام بها وأخلاها، وأحوج ملك الروم إلى أن أطاعه وأخذ رهائنه: ولده وأخاه وأربعين نفراً من خلصائه، وأخذ منه خمسين قنطاراً ذهباً، وخمسين قنطاراً فضة، وثياباً طلساً، مبلغاً عظيماً، واغتصب المراكب وعاد بها إلى هذا الجانب، وصحبته الرهائن إلى أن دخل حدود بلاد الملك قليج أرسلان، ورد الرهائن، وبقي سائراً ثلاثة أيام وتركمان الاوج يلقونه بالاغنام والابقار والخيل والبضائع فداخلهم الطمع وجمعوا من جميع البلاد، ووقع بينهم وبين التركمان، وضايقهم التركمان ثلاثة وثلاثين يوماً»، ثم ذكر ماوقع بينه وبين قليج أرسلان على مانذكره إنشاء الله تعالى.

ذكر ماجرى بينهم وبين قليج أرسلان:

ولما وصلوا إلى بلاد قليج أرسلان، وكان مملوكاً من ولده قطب الدين ملكشاه، وهويدبر أمره، عارضهم وتعرض لقتالهم وطاردهم ليضيق عليهم، ثم اندفع من بين أيديهم، ودخلوا قونية، واعتصم قليج أرسلان بقلعتها وتراسل هووملك الالمان واتفقا بالمواثيق والايمان على ان يوافقه على العبور إلى الاقاليم الشامية والبلاد الاسلامية، وعلى أن يسير في بلاده إلى بلاد لافون ملك الأرمن، وأعطاه عشرين مقدماً من أكابر أمرائه ليكونوا معه حتى يصل إلى الماء، وأمر الناس بمبايعتهم على مايسومونه، وأقام لهم الاسواق، فساروا في رفق ورفاهية، ولماوصل الملعون الى بلاد الارمن غدر بالرهائن وساقهم محمولين مع الظعائن، واحتج عليهم بأن التركمان سرقوا منهم في طريقه.

وفي تـاريخ بيبرس: ولما قـربـوا من قـونيـة خرج إليهـم قطـب الديـن ملكشاه بـن قليج أرسلان ليمنعهـم، فلم يمكنـه ذلك لكثرتهم، فـراسله ملـك الالمان، وأرسل إليـه هديـة وهادنـه، وطلب منـه من يسير معـه إلى بيت المقدس، ثم سار إلى بلاد الارمن.

وفي المرآة: ولما دخلوا بلاد قليـج أرسلان لم يكن له بهم طاقـة، فاحتاج إلى مسالمتهـم، وكتب إلى السلطان يعتذر بـالعجز عنهم، وسـاروا طالبين الشام، ووقع فيهم الوباء وبدوابهم.

وذكـر في النوادر: ولما قـربوا مـن قونيـه، جمع قطـب الديـن بن قليـج أرسـلان العساكـر، وقصده وضرب معـه مصـافاً عظيماً فظفـر به الملـك، وكسره كسرة عظيمة، وسـار حتى أشرف على قـونية، فخـرجت إليـه جموع كثيرة من المسلمين فردهم مكسورين، وهجم قـونية بالسيف، وقتل منهم عالماً عظيما من المسلمين، وأقـام بها خمسة أيام، فطلب منـه قليج أرسلان الامان، فأمنـه، واستمرت بينهم قاعـدة أكيدة، وأخذ منه رهـائن عشرين مـن أكـابـر دولتـه، وأشـار على الملك أن يجعـل طـريقـه على طـرسـوس والمصيصة، ففعل ذلك وقبل منه.

وفي المرآة: ووصلوا إلى نهر طرسوس فتحصن منـه ابن ليفون بقلعة من قلاعه لانه أرمني وهم روم.

قلت: التوفيـق بين الكلامين أنه تحصن أولا منـه خوفاً، ثم طلـب منه الامان فأمنه، ونزل إلى خدمته، وأقام بواجبه.

ذكر هلاك ملك الالمان:

لماوصل ملـك الالمان الى طرسـوس، اجتاز هنـاك بنهر شـديد الجريـة، فدعته نفسـه الخبيثة ان يسبح فيه، فنزل وصار فيـه، فحمله الماء إلى جذم

شجرة هناك ففشخت رأسه، وأخذت أنفـاسه، وراحت روحه إلى الهاوية، وأراح الله المسلمين منه، وكان شيخاً مسناً.

وفي تاريـخ بيبرس: ثم سار إلى أنطاكيـة، وكان في طريقهم نهر، فنـزلوا عنده، فعبر الملك النهر ليغتسل فمرض فمات، وكفى الله شره.

وفي المرآة: أراد الملـك أن يسبح في نهر طـرسـوس، وكـان ماؤه بـارداً، فنهوه، وقـالوا: لاتفعل فـأنت متعوب، فقال: لابـد من ذلك فسبـح فيه، فأخذته الحمـى، فأقاموا على النهر بسببه، فأوصـى إلى ولده الذي كان في صحبته ومات فسلقوه في خل وحملوا عظامه ليدفنوها في القدس.

وذكر صـاحب النوادر: نـزل على شط بعـض الانهار، فأكل خبـزاً ونام سـاعة، وانتبـه فتـاقت نفسـه الى الاستحمام في الماء البـارد، ففعل ذلـك، وخرج، وكـان من أمـر الله أنـه تحرك عليه مـرض عظيم مـن الماء البارد، فمكث أياماً قلائل ومات.

ولما شاهـد لافون ملك الارمـن هذا هـرب وتحصن في بعض حصـونه، واحتمى هناك.

ذكر إقامة ابن الملك مقامة:

ولماهلك اللعين المذكـور أقيم ولده الاصغـر في الملك بعـده، وقد تمزق شملهم، وتفرق جمعهم.

وفي المرآة: ولما مـات اختلفوا على ولـده لانـه كـان له آخـر آكبر منـه، وكانوا يميلون إليه، فتأخر عنه أكثرهم، ودخل أنطاكية في جيش قليل.

وفي تـاريخ بيبرس: وكـان معه ولـده فصيروه ملكاً عليهـم، فاختلفـوا

عليه، ومـال بعضهم إلى أخيـه، فسار فيمـن بقي معـه، وعرض جماعتـه، فكانـوا نيفاً وأربعين ألفـاً، ووقع فيهـم الوبـاء، وتخطفهم عسكـر حلب وغيرهم، ثـم ساروا إلى طـرابلس، فلـم يبق منهـم سوى ألـف، ثم ركبـوا البحر وقصـدوا عكا، ثـم أجمعوا على العود إلى بـلادهم في البحـر، فغرق بهم المركـب، ولم ينج منهـم أحد، وأرسـل قليـج أرسلان صـاحب الـروم يعلم السلطان صلاح الـدين بذلك، وبلغ الفرنج هـلاكه فأشعلوا النيران حزناً عليه.

وفي تاريـخ ابن كثير: وأمـا ولد ملـك الالمان فإنـه مرض أيـاماً في بلـد الارمن، وهلك أصحابه جوعـاً، ووقع الموت في خيلهم، وحمل الملك وهو مريض، وساروا أمامه في ثلاث نـوب لكثرتهم، ومعظم رجالتهم حاملين العصي وركـاب حمير، وهـم غير عـارفين بـالطـريـق، والنـاس يلتقطـونهم ويتخطفونهم، ووصلـوا إلى أنطاكيـة وضاق بـالابرنـس صاحـب أنطاكيـة ذرعاً، ولم يجد عنـده مرتجى، وطلـب منه القلعة فـأخلاها لـه، ونقل مـاله إليها وسـأله أن يجعـل طريقه على حلـب، فخاف وأبـدى الخلاف، وقبل وصوله إلى انطاكية قلت جموعـه وجنوده، وبليت بحشد التركمان حشوده، واجتازت الفرقـة الاولى منهم على بغراس من تحت قلعتهـا، فخرج رجالها عليهم على قلتهم، فأسروا منهم أكثر مـن مائتي أسير، وقيل إنهم حسبوا أن بغـراس باقيـة على حالها بيـد الداويـة، فجاءوا إليهـم سحراً بـأحمالهم وأمـوالهم السنيه، فلـم يشعـر واليها إلا البغال على البـاب واقفة، فخـرج إليها وتسلمها بغير طعن ولاضرب، وتخلى عنهـا أصحابها لما عرفوا الحال، ولم يعـرجوا على حـرب، وهلك بـانطـاكية الكنـد الكبير مقدم العسكـر، وحصـل للابـرنس صـاحب انطـاكية أمـوال كثيرة من الـذخائر المودعـة وغيرها، ثـم سار هـؤلاء الملاعين على طريـق الساحـل، فخرجـت عليهم خيل الـلاذقية وجبلة وسقتهم أنـواع العذاب، فجدوا السير حتـى وصلوا إلى طرابلس وقـد نقص نصفهـم، وخاف الملك مـن المسير على الطريق لما افترقت جموعه، فـركب البحر في عدديسير لايزيد على ألـف، واختلط مع

الافرنـج على عكا، فسقط اسمـه وبطل حكمه، وكـذلك شأن مـن يكفر بالله.

وقال ابن كثير: وصل ملك الالمان في خمسمائة ألـف مقاتل، وإن ملوك الافرنج كلهـم كرهوا قدومـه عليهم لما يخافون من سطـوته، وزوال دولتهم بدولتـه ولم يفرح بـه إلا المركيس صاحـب صور، الـذي حرك هـذه الفتنة وأثار هذه المحنـة لعنه الله، فانـه تقوى به وبكيده، وكـان خبيراً بالحروب والقتال، وقـد أحدث أشياء كثيرة، مـن آلات الحرب لم تخطر ببـال أحد، منها أنـه نصب دبـابات أمثال الجبـال تسير بعجل ولها زلـوم من حـديد ينطح السور فيكسر ويثلم جـوانبه، فمن الله العليم باحـراقها واتلافها، وأراح الله المسلمين من شـرهـا (٢٤)

ذكر مسير العساكر إلى أطراف البلاد التي في طريق ملك الالمان:

لما تحقق السلطان صـلاح الدين رحمه الله وصـول ملك الالمان الى بلاد لافون، ملك الارمن، وقـربه من البلاد الاسلامية جمع أمـراء دولته وأرباب الآراء وشاورهم فيما يصنع، فاتفـق الرأي على أن بعض العسكر يسير إلى البلاد المتاخمة لطريق عسكر العـدو الواصل، وأن يقيم هو رحمه الله على منازلة العدو ببـاقي العسكر المنصور، فكان أول من سـار صاحب منبج، وهو نـاصر الديـن بن تقـي الديـن، ثم عـز الديـن بن المقـدم صاحـب كفرطـاب وبعريـن وغيرهما، ثم مجد الديـن صاحب بعلبـك، ثم سـابق الديـن صاحب شيـزر، ثم الياروقيـة من جملـة عسكر حلب، ثـم عسكر حماه، وسـار ولـده الملك الافضـل إلى دمشـق لمرض عـرض له، ثـم بـدر الدين شحنـة دمشق لمرض عرض له أيضـاً، وسار بعد ذلك ولـده الملك الظاهـر إلى حلب لحفظ الطـرق وكشف الاخبـار، وسار بعد ذلـك الملك المظفر لحفظ مايليـه من البلاد، وكان آخر من سافر ليلـة السبت التاسع

عشر من جمادى الآخرة من سنة ست وثمانين وخمسمائة، ولماسارت هذه العساكر خفت ميمنة السلطان، فإن معظم من سار كانوا منها، فأمر السلطان أخاه الملك العادل أن ينتقل إلى منزلة تقي الدين في طرف الميمنة، وكان عماد الدين زنكي في طرف الميمنة، ووقع في العسكر مرض عظيم، فمرض مظفر الدين بن زين الدين صاحب حران وشفي، ومرض بعده الملك الظاهر ولد السلطان وشفي، ومرض خلق كثير من الا كابر وغيرهم، إلا أن المرض كان سليماً بحمد الله، وكان المرض عند العدو أكثر وأعظم، مع كونه مقروناً بموتان عظيم، وأقام السلطان رحمه الله مصابراً على ذلك، مرابطاً للعدو.

وفي تاريخ ابن كثير: عزم السلطان على استقبالهم بالرد، وصدهم عن القصد، ثم ثبت عزمه على أن يعود الذين لهم بلاد على طريق هؤلاء الملاعين، فأول من سار ناصر الدين محمد ولد الملك المظفر صاحب منبج، ثم فلان وفلان على ماذكرنا الآن، ثم رحل الملك المظفر تقي الدين لحفظ ثغر اللاذقية وجبلة، وكان هو آخر من سار ليلة السبت التاسع من جمادى الآخرة، ورتب السلطان منازل العسكر الحاضره على ماذكرنا وتقدم، وهدم سور طبرية، وهدم يافا وأرسوف وقيسارية، وهدم سور صيدا وجبيل، ونقل أهلها إلى بيروت.

وفي المرآة: وانقطعت أخبار عكا عن السلطان، فندب أقواما للسباحة وأعطاهم المال في أوساطهم والطيور في أعناقهم ليرووا الاخبار، فعلم بذلك الافرنج فاحترزوا بشباك نصبوها في الميناء، فإذا جاء سابح وقع فيها، فامتنع الناس، وبعث قراقوش يشكو قله الميرة، فرتب لهم السلطان بطسة كبيرة، وجعل فيها نصارى من أهل بيروت كانوا قد أسلموا، فقال لهم: ارفعوا الصلبان على البطسة كأنكم قاصدين الفرنج، ففعلوا ذلك، فخرج إليهم الافرنج في الشواني، فقالوا: نراكم قاصدين البلد؟ فقالوا: أو ما أخذتموه بعد؟ قالوا: لا، فقالوا وراءنا بطسة أخرى ردوها عن

البلد، فذهبوا عنهم فردوا القلاع إلى البلد، ودخلوا إلى الميناء، وكبر المسلمون وامتاروا أياماً.

ذكر الوقعة العادلية:

ولماكان يوم الاربعاء العشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة، علم عدو الله أن العساكر تفرقت في أطراف البلاد للعدو، وأن ميمنة السلطان قد خفت، أجمع رأيهم على أنهم يهجمون على طرف الميمنة بغتة، فخرجوا ظهيرة يوم الاربعاء، وامتدوا ميمنة وميسرة وقلباً، وانبثوا في الارض، وكانوا عدداً عظيماً، واستخفوا طرف الميمنة، وكان في طرفها مخيم الملك العادل، فلما بصر الناس بهم خرجوا من خيامهم كالاسود من آجامها، وركب السلطان صلاح الدين رحمه الله ونادى مناديه: ياللاسلام، وركبت الجيوش وطلبت الاطلاب، وكان السلطان أول راكب.

وقال قاضي القضاة بهاء الدين: ولقد رأيته وقد ركب من خيمته وحوله نفر يسير من خواصه، والناس لم يستتم ركوبهم، وهو كالفاقدة ولدها الثاكلة، ثم ضرب الكوس فأجابته كوسات الامراء من أماكنها، وركب الناس، وأما الفرنج لعنهم الله، فإنهم سارعوا في القصد إلى الميمنة حتى وصلوا قبل استتمام العساكر حتى وصلوا إلى مخيم الملك العادل، ودخلوا في وطاقه، وامتدت أيديهم في السوق وأطراف الخيم بالنهب والغارة، وقيل وصلوا إلى الخيمة الخاص، وأخذوا من شرابخاناته شيئاً، وأما الملك العادل لما علم بذلك ركب وخرج من خيمته واستركب من يليه من الميمنة كالطواشي قايماز النجمي، ومن يجري مجراه من أسود الاسلام، ووقف وقوف مخادع حتى توغل بهم طمعهم في الخيم، واشتغلوا بالنهب من الاقمشة والفواكه والمطاعم، فعند ذلك صاح العادل بالناس وحمل بنفسه يقدمه ولده الكبير شمس الدين، وحمل بحملته من كان يليه من الميمنة، وهجموا على العدو

هجمة الاسـود على فرائسها وأمكنهـم الله منهم، ووقعـت الكسرة فعادوا يشتـدون نحـو خيـامهـم هاربين على أعقـابهم، وسيـف الاسـلام يلتقـط الارواح من الاشباح، ويفصل بين الاجسـاد والرؤوس، ويفرق بين الابدان والنفوس، ولما بصر السلطان بـذلك نادى في الناس ياللاسـلام، ياأبطال الموحدين، هـذا عدو الله قد أمكـن الله منه، وقد داخلهـم الطمع حتى غشيـوا خيامكـم، فكان مـن المبـادرين إلى إجـابتـه جماعة مـن مماليكـه وخاصته، ثم طلـب عسكر الموصل يقدمهم علاء الدين ولـد عز الدين، ثـم عسكر مصر يقـدمهـم سنفر الحلبـي، وتتابعـت العسـاكر وتجاوبـت الابطـال، ووقـف السلطـان في القلـب، فعنـد ذلـك قـامـت الحرب على سوقها.

قال الراوي: فلـم يك ساعة حتـى رأينا القوم ﴿صرعى كـأنهم أعجاز نخـل خـاويـة﴾ [الحاقـة٧] وامتـدوا مطـرحين، أولهم مـن خيـام الملـك العادل، وآخـرهـم عنـد خيامهم، وكـانت المسـافة بين المضربين فـرسخاً، وربما زاد على ذلك، وقتلى الافرنج مطرحين فيها ولم ينج منهم إلا النادر.

قال قـاضي القضاة بهاء الديـن: ولقد خضت في تلـك الدماء بـدابتي فاجتهـدت أن أعدهـم فما قدرت على ذلـك لكثرتهم، وشـاهدت فيهـم امرأتين مقتولتين، وحكى لي من شاهـد فيهم أ ربع نسوة يقاتلن، وأسرت منهن اثنتان، وأسر من الرجال في ذلـك اليوم نفر يسير، فإن السلطان أمر أن لايستبقى أحـد، هذا كله في الميمنـة وبعض القلـب، وأما الميسرة، فما اتصل الصائح بهم إلا وقد نجز الامر، وكـانت هذه الوقعة فيما بين الظهر والعصر، وانفصلـت الحرب بعـد العصر، ولم يفقـد مـن المسلمين في هـذا اليـوم سـوى عشرة أنفـس غير معـروفين، وأما أهـل عكـا فـإنهم كـانـوا يشاهدون الوقعـة من أعالي السور، فخرجوا إلى مخيـم العدو، وجرى بينهم مقتلـه عظيمـة، وكانـت النصرة للمسلمين، فـأخـذوا جمعاً مـن النسـوان

والاقمشة حتى القدور فيها الطعام، واختلف الناس في عدد القتلى منهم فقيل كانوا ثمانية آلاف وقيل سبعة آلاف.

وقال قاضي القضاة بهاء الدين: ولقد شاهدت منهم خمسة صفوف أولها عند خيم العادل وآخرها عند خيامهم، ولقد رأيت انساناً عاقلاً جنديا يسعى بين الصفوف من القتلى ويعدهم، فقلت له: كم عددت؟ فقال إلى هنا أربعة آلاف ونيفاً وستين قتيلاً، وكان قد عدّ صفين وهو في الصف الثالث، لكن مامضى من الصفوف كان أكثر عدداً من الباقي.

ولما كان يوم الخميس الحادي والعشرين من جمادى الآخرة ورد في عصره نجاب من حلب، ومعه كتاب يتضمن أن جماعة عظيمة من العدو الشمالي خرجوا لنهب أطراف البلاد الاسلامية، ونهض العسكر الاسلامي من حلب وأخذوا عليهم الطريق فلم ينج منهم أحد إلا من شاء الله عزوجل، فضربت البشائر، ولم ير يوم أحسن منه، وجاء في بقية ذلك اليوم من اليزك قيماز الحراني، وذكر أن العدو قد سأل من يصل إليهم ليسمع منهم حديثاً في سؤال الصلح، لضعف حل بهم، ولم يزل أعداء الله من ذلك الوقت مكسوري الجناح منهاضي الجانب حتى وصل إليهم كند يقال له كندهري.

ذكر وصول الكندهري:

هذا كان ملكاً من ملوك الافرنج ومن أعيانهم، وصل في البحر في مراكب عدة ومعه من الاموال والذخائر والمير والاسلحة والرجال عدد عظيم، فقوي بوصوله جأش الافرنج وحدثتهم نفوسهم بكبس العسكر الاسلامي ليلاً، وكثر هذا الحديث على ألسنة المستأمنين والجواسيس، فجمع السلطان الامراء وأرباب الرأي واستشارهم فيما يفعل، وكان آخر الرأي أنهم يوسعون الحلقة ويتأخرون عن العدو رجاء أن يخرجوا ويبعدوا عن خيامهم فيمكن الله منهم، ووافقهم السلطان على ذلك، فرحل إلى

جبل الخروبة بالعساكر بأسرها، وكان في يوم الاربعاء السابع والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة، ونزل بقية من العسكر في تلك المنزلة كاليزك مقدار ألف فارس يتناوبون لحفظ النوبة.

هذا والكتب متواصلة من عكا على أجنحة الطيور، وأيدي السباح والمراكب اللطاف تخرج ليلاً وتدخل سرقة منهم، وكان الكندهري المذكور قد أنفق على منجنيق كبير عظيم الشكل على مانقل الجواسيس والمستأمنون ألفاً وخمسمائة دينار، وأعده ليقدمه على البلد، ولما رأى المسلمون أنهم سلطوا على البلد المنجنيقات من كل جانب وتناوبوا عليها بحيث لايتعطل رميها لا ليلاً ولانهارا، وذلك في أثناء رجب من هذه السنة، وضيقوا على البلد، حركتهم النخوة الاسلامية، واتفقوا على أنهم يخرجون فارسهم وراجلهم على غرة وغفلة منهم، وكان مقدم العسكر الاسفهسلار الكبير حسام الدين أبو الهيجاء المقدم في الكرم والشجاعة، ووالي البلد وحارسه الامير الكبير بهاء الدين قراقوش، وفتحوا الابواب وخرجوا دفعة واحدة من كل جانب، ولم يشعر الفرنج إلا والسيف فيهم حاكم، وسهم قضاء الدين فيهم نافذ، وتقدموا إلى أن ولجوا في خيامهم، ولما رأوهم كذلك ذهلوا عن المنجنيقات وحراستها، فوصلت إليها شهب الزراقين والنفاطين حتى اضطرمت فيها النيران واحترق منها ماشيدته الاعداء في المدة الطويلة في أقرب أوان، وقتل منهم في ذلك اليوم سبعون فارساً، وأسر خلق عظيم، وكان في جملة الاسرى رجل مذكور فيهم ظفر به شخص من آحاد الناس، ولم يعلم بمكانته ولما انفصل الحرب سأل الفرنج عنه هل هو حي أم لا، فعرف الذي عنده أنه رجل كبير، وخاف أن يغلب عليه ويؤخذ منه فسارع إلى قتله فقتله، وبذل الفرنج فيه أموالاً عظيمة، ولم يزالوا يسألون ذلك حتى رموا إليهم رأسه، فضربوا بنفوسهم الارض، وحثوا على رؤوسهم ووجوههم التراب، ووقعت عليهم بسبب ذلك خمدة عظيمة واستخفهم المسلمون بعد ذلك فهجموا عليهم من كل جانب، ولاسيما العرب،

فإنهم يدفون(٢٥) فيهم من كل ناحية يسرقون وينهبون ويأسرون ويقتلون، فانحلت عزيمتهم وضعفت قواهم، ولاسيما لما أحرق المسلمون ذلك المنجنيق العظيم الذي صنعه الكندهري، كما ذكرنا.

ذكر وصول البطس من مصر:

كتب الأمير بهاء الدين قراقوش متولي عكا إلى السلطان في العشر الأول من شعبان من هذه السنة أنه لم يبق عندهم من المؤن مايكفيهم إلى ليلة النصف، فلما وصل الكتاب إلى السلطان أسره في نفسه ولم يبده لأحد، خوفاً من شيوع ذلك فيبلغ إلى العدو فيقوى على المسلمين، وتضعف القلوب، وكان قد كتب إلى أمير الاسطول بالديار المصرية ليتقدم بمسيره إلى عكا، فوصلت ثلاث بطس ليلة النصف فيها من الميرة مايكفي أهل البلد طول الشتاء، وهي في صحبة الأمير لؤلؤ الحاجب، فلما أشرفت على الناس، تقدم إليها اسطول الفرنج ليحاجز عن البلد، ويتلف البطس، فاقتتلوا في البحر قتالا عظيماً، والمسلمون في البر يبتهلون إلى الله تعالى عز وجل، والفرنج أيضاً يصرخون في البر والبحر، وقد ارتفع الضجيج، فنصر الله المسلمين، وسلمت مراكبهم وطابت الريح للبطس فسارت فأحرقت المراكب الافرنجية المحيطة بالميناء، ودخلت البلد سالمة، وفرح بها أهل البلد والجيش فرحاً عظيماً، وكان السلطان رحمه الله قد جهز قبل هذه الثلاث بطس المصريات بطسة عظيمة من بيروت فيها أربعمائة غرارة قمح وشيء من الجبن والبصل والشحم والقديد والنشاب والنفط، وكانت هذه البطسة من بطس الفرنج المغنومة، وأمر من فيها من التجار أن يتزيوا بزي الفرنج حتى أنهم حلقوا لحاهم وشدوا الزنانير، واستصحبوا معهم في البطسة شيئاً من الخنازير، وقدموا بها على مراكب الفرنج، فاعتقدوا أنهم منهم، وهي سائرة كأنها السهم إذا خرج من الرمية، فحذرهم الفرنج غائلة الميناء من ناحية المسلمين، فاعتذروا بأنهم مغلوبون معها والريح قوية

لايمكنهم أن يقفوا ولاينصرفوا، ومازالوا كذلك حتى ولجوا الميناء، وأفرغوا ماكان معهم من الميرة ، والحرب خدعة.

قال صاحب النوادر: وكان ذلك في العشر الاخير من رجب.

ذكر احتراق بطسه عظيمة للفرنج:

كان ميناء عكا يكتنفه برجان يقال لأحدهما برج الذبان، فاتخذ الفرنج بطسة عظيمة لها خرطوم وفيه حركات، إذا أرادوا أن يضعوه على كل شيء من الاسوار والابرجة كلبوه فيصل إلى ماأرادوه، فعظم أمر هذه البطسة على المسلمين، ولم يزالوا في أمرها محتارين حتى أرسل الله عليها شواظاً من نار فأحرقها وغرقها، وذلك أن الافرنج أعدوا فيها نفطاً كثيراً وحطباً جزلاً، وأخرى خلفها فيها حطب محض حتى إذا أراد المسلمون المحاققة عن الميناء بمراكبهم أرسلوا النفط على تلك البطسة الحطبية فاحترقت وهي سائرة بين بطس المسلمين فتحرقها، وبطسة أخرى لهم فيها مقاتلة تحت قبو قد أحكموه فيها، فلما أرسلوا النفط على برج الذبان انعكس الامر عليهم بقدرة الرحمن وذلك لشدة الهواء تلك الليلة، فما تعدت النار بطستهم فاحترقت، وتعدى الحريق إلى الاخرى فغرقت، ووصل الى بطسة المقاتلة فتلفت وهلك من فيها، فأشبهوا من سلف من الكفار كما قال تعالى: ﴿يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين﴾ [الحشر٢].

ذكر قصة عيسى العوام رحمه الله:

وكان عواماً، قيم في العوم يقال له عيسى، وكان يدخل إلى عكا بالكتب والنفقات على وسطه ليلاً على غرة من الافرنج، وكان يغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو، وكان ذات ليلة شد على وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار، وكتب مشمعة للعسكر، فنزل في

البحر، فجرى عليه أمر أهلكه، وأبطأ خبره عن المسلمين، وذلك لان عادته أنه إذا دخل البلد أرسلوا طيراً يعرف بوصوله، فلم يجيء الطير فتحققوا أنه هلك، ولما كان بعد أيام بينما الناس على طريق البحر في البلد إذا البحر قد قذف إليهم ميتاً غريباً فتسارعوا إليه فأخرجوه، فوجدوه عيسى العوام، ووجدوا على وسطه الذهب والكتب المشمعة، وكان الذهب نفقة للمجاهدين، فما رؤي من أدى الامانة في حال حياته، وقدر الله له أداءها بعد وفاته الا هذا الرجل، وكان ذلك في العشر الاخير من رجب من هذه السنة.

ذكر اشتداد الحصار على عكا:

وفي ثالث رمضان من هذه السنة اشتد الحصار من الافرنج للبلد حتى نزلوا إلى الخندق، فبرز إليهم أهل البلد، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وتمكنوا من حريق الكبش الذي اتخذوه لحصار الاسوار، وسرى حريقة الى السفود، فارتفعت له لهبة عظيمة في عنان السماء، ثم اجتذبه المسلمون إليهم بكلاليب من حديد في سلاسل، فحصلوه عندهم وألقوا عليه الماء البارد، فبرد بعد أيام فكان فيه من الحديد مائة قنطار بالدمشقي.

وقال العماد الكاتب رحمه الله: وعمل الفرنج دبابة هائلة في رأسها شكل عظيم يقال له الكبش، وله قرنان في طول رمحين كالعمودين العظيمين الغليظين، وهذه الدبابة في هيئة الخربشت الكبير، وقد سقفوها مع كبشها بأعمدة الحديد، ولبسوا رأس الكبش بعد الحديد بالنحاس، فحاصل الكلام أبطل المسلمون سعيهم في ذلك وأحرقوها كما ذكرنا ولله الحمد.

وفي أثناء ذلك حصل للسلطان سوء مزاج من كثرة مايكابده من الامور التي هي أمر من الاجاج، فطمع العدو المخذول في الاسلام

فتجرد منهم جماعة للقتال، وثبت آخرون على الحصار، وأقبلوا في عدد كثير، وعدد غزير.

وكانوا صوروا القدس في ورقة عظيمة، وصوروا فيه صورة القمامة التي إليها يحجون ويعظمون شأنها، وفيها قبر المسيح الذي دفن فيه بعد صلبه - على زعمهم الفاسد - وذلك القبر أصل حجهم، وهو الذي يعتقدون نزول النور عليه في كل سنة في عيد من أعيادهم، فصوروا القبر، وصوروا عليه فرساً عليه فارس مسلم راكب عليه، وقد وطىء قبر المسيح، وقد بال الفرس، وأظهروا هذه الصورة وراء البحر في الاسواق والمجامع والقسوس يحملونها ورؤوسهم مكشفة، وعليهم المسوح وينادون بالويل والثبور، فهاج بذلك خلائق لايحصون، ولما كثروا على المسلمين رتب السلطان الجيش ميمنة وميسرة وقلباً وجناحين، فلما رأى الفرنج ذلك فروا من موقف الحرب، فقتل منهم خلق كثير وجم غفير، ولما دخل فصل الشتاء وانشمرت مراكب الافرنج عن البلد خوفاً من الهلاك، وبسبب الزمان سأل من في البلد من المسلمين السلطان أن يخرجهم ويريحهم مما هم فيه من الحصر العظيم والمقاتلة ليلاً ونهاراً، وأن يرسل إلى عكا بدلهم، فرق لهم السلطان، وعزم على ذلك، وكانوا قريباً من عشرين ألف مسلم: مائتي أمير ومأمور، فجهز جيشاً آخر غيرهم.

قالوا: ولم يكن ذلك برأي جيد، ولكن ماقصد السلطان إلا خيراً، لان هؤلاء الذين يدخلون البلد جدد الهمم، ولهم قوة العزم، وكانوا في راحة بالنسبة لاولئك، ولكن اولئك كانت لهم خبرة بالبلد والقتال، وكانوا قد تمرنوا على ماهم فيه من المصابرة للاعداء براً وبحراً، وجهزت لهؤلاء الداخلين سبع بطس فيها ميرة تكفيهم سنة كاملة، فقدر الله تعالى أنها لما توسطت البحر واقتربت من مينائها هاجت ريح عظيمة في البحر فتلقت بتلك البطس على عظمها، فاختبطت واضطربت وتصادمت وغرقت وغرق من فيها من البحارة جميعهم، ومافيها من الميرة، فدخل

بسبب ذلك وهن عظيم على المسلمين، واشتد مرض السلطان وازداد مرضاً إلى مرضه وكان ذلك عنواناً على أخذ البلد، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وذلك في ذي الحجة من هذه السنة، وكان المقدم على الداخلين إلى عكا الامير سيف الدين علي بن أحمد المشطوب.

وذكر صاحب النوادر أن دخوله كان يوم الاربعاء السادس عشر من محرم سنة سبع وثمانين وخمسمائة، وفي ذلك اليوم خرج المقدم الذي كان بها وهو الامير حسام الدين أبو الهيجاء وأصحابه ومن كان بها من الامراء، ودخل مع المشطوب خلق كثير من الامراء وأعيان الناس.

ذكر بقية الحوادث في هذه السنة:

منها أن في يوم الخميس السادس عشر من رمضان من هذه السنة وصل الكتاب على جناح طير من حماه، وكان قد جاء إليها من حلب يذكر فيه أن الابرنس صاحب أنطاكية خرج بعسكره نحو القرى الاسلامية لشن الغارة عليها فبصرت به العساكر. ونواب الملك الظاهر غازي، ولد السلطان، فكمنت الكمناء، وخرجوا عليهم، فلم يشعر الابرنس بهم الا والسيف قد وقع، فقتل من عسكره خمسة وسبعون نفراً، وأسر خلق كثير، واستعصم هو بنفسه في موضع يسمى شيحا حتى اندفعوا وساروا إلى بلدهم.

ومنها أن في أثناء العشر الاخير من رمضان ألقت الريح بطستين فيهما رجال وصبيان ونساء وميرة عظيمة وغنم كثيرة، وكانوا قاصدين نحو العدو فغنمهما المسلمون، وكانوا قد ظفروا ببركوس للمسلمين فيه نفقة ورجال أرادوا الدخول إلى البلد، فأخذوه، فوقع الظفر بهاتين جبراً عن ذلك.

ومنها أنه قوي عزم الافرنج على الخروج إلى جهة المسلمين، وتغير

مزاج السلطان بحمى صفراوية، فاقتضى الحال أن انتقلوا في عشية الاثنين تاسع رمضان من هذه السنة، فنزلوا على أعلى جبل كفر عم ورؤوس التلال للاستعداد للشتاء والاستراحة عن الوحل.

وفي ذلك الزمان مرض زين الدين يوسف بن زين الدين صاحب إربل مرضاً شديداً بحمتين مختلفتين، واستأذن في الرواح فلم يؤذن له، ثم استأذن في الانتقال إلى الناصرة فأذن له في ذلك، وأقام بالناصرة أياماً وهو مريض، فاشتد به الأمر الى ليلة الثلاثاء الثامن والعشرين من رمضان من هذه السنة، ثم توفي إلى رحمة الله، وعنده أخوه مظفر الدين، وحزن الناس عليه لشبابه وغربته، وأنعم السلطان على أخيه مظفر الدين ببلده إربل واستنزله عن بلاده التي كانت في يده، وهي حران والرها ومايتبعهما من البلاد والاعمال، وضم إليه شهرزور أيضاً، واستدعى الملك المظفر تقي الدين عمر ابن أخيه شاهنشاه ليكون نازلاً مكانه، وأقام مظفر الدين كوكبري بن زين الدين علي بالمعسكر المنصور إلى قدوم تقي الدين، وقدم ضاحي النهار الثالث من شوال من هذه السنة، وفي صحبته معز الدين سنجرشاه ابن سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي صاحب الجزيرة، إذ ذاك، ثم تكرر سؤال عز الدين هذا في طلب الدستور، والسلطان يعتذر إليه بأن رسل العدو متكررة في معنى الصلح فلايجوز أن تنقص العساكر حتى يتبين على ماذا ينفصل الحال من سلم أو حرب، وهو لايألوا جهداً في طلب الدستور، إلى أن كان يوم عيد الفطر من هذه السنة، وحضر سحرة ذاك اليوم في باب خيمة السلطان فاستأذن في الدخول فلم يؤذن له، وكرر الاستئذان فأذن له، فدخل واستأذن في الرواح شفاها، فذكر له السلطان وجوها تمنع من الرواح، فانكب على يده وقبلها كالمودع له، ونهض من ساعته وسار وأمر أصحابه أن اكفئوا القدور وفيها الطعام واقلعوا الخيام، وتبعوه على ذلك، فلما بلغ السلطان إليه ذلك، كتب إليه: «إنك قد قصدت الانتماء إليّ ابتداء وراجعتني في ذلك مراراً، وأظهرت الخيفة على نفسك وبلدك

من أهلـك، فقبلتك وآويتـك، ونصرتك، فبسطـت يدك في أمـوال الناس ودمائهـم وأعراضهـم،، فنفذت إليك ونهيتـك عن ذلـك مراراً فلـم تنته، فاتفـق وقوع هـذه الواقعة لـلاسلام فـدعونـاك فأتيت بعسكـر قد عـرفته وعرفـه الناس، وأقمت هذه المدة وقلقـت هذا القلق، وانصرفـت عن غير طيب نفس، وغير فصل حال مع العدو، فـانظر لنفسك وانظر من تنتمي إليه غيري، واحفظ نفسك ممن يقصدك فما بقي لي إلى جانبك التفات».

وسلم الكتـاب إلى نجاب، فلحقـه قريباً مـن طبرية، فقـرأ الكتاب ولم يلتفـت إليـه، وسـار على وجهـه، وكـان الملك المظفـر تقـي الـديـن قـد استدعـي إلى الغزاة ـ كما ذكرنـا الآن ـ فلقيه في عقبة فيـق، وهو مخث، وليست عليه امـارات حسنة، وسأله عن حـاله ففهم من كلامـه أنه سار والسلطـان غير راض عليـه، فقال لـه: المصلحـة أن تـرجع إلى خـدمتـه وتلازمها إلى أن يأذن لك السلطان، فأنـت صبي لاتعلم غائلة هذا الامر، فلم يلتفت إليـه، وأصر على الرواح، فخشن عليه الملك وقال: تـرجع من غير اختيار، وكان تقي الـدين شديد البأس مقدامـا على الامور، فلما علم معز الدين أنه قـابضه إن لم يرجع، فرجع باختياره، ورجـع معه حتى أتى العسكـر، وخـرج الملـك العـادل إلى لقـاء الملـك المظفـر، فـدخـلا على السلطان وسـألاه الصفح عنـه فعفا عنـه، وطلب أن يقيـم في جوار تقـي الديـن خشية على نفسه، فأذن في ذلـك، وأقام في جواره إلى حين ذهـابه، وكذلك عماد الـدين صاحب سنجـار، كان قد أصر على الرحيـل، ودخل على السلطان، فقبل يـده وسار من ساعته، فكتب السلطـان وراءه كتاباً، وكتب بيده في ظهره:

مـــــن ضـــــاع مثلي مـــــن يـــــديـــــه
فليـــــت شعـــــري مـــــا استفـــــادا

فوقف عماد الدين عليه وانقطعت مراجعته بالكلية.

ومنها: أنه تـواصلت الاخبار بضعف العدو المخـذول، ووقع الغلاء في بلادهـم وعسكرهـم حتى أن الغرارة مـن القمح بلغـت في أنطاكيـة ستة وتسعين ديناراً صورية، ولايزيدهم ذلك إلا صبراً واصراراً وعناداً.

ومنهـا: أنهم ضـاق بهم الامـر وعظـم الغـلاء فخـرج خلـق عظيـم مستأمنين لشـدة الجوع، وقد ذكرنـا أن السلطان كـان قد عرض لـه مرض فطمعوا بذلك وظنوا أنه لايستطيـع النهوض فخرجوا يوم الاثنين الحادي عشر من شـوال من هذه السنة بخيلهـم ورجلهم متحملين أزواداً وخيماً، وكان خروجهـم إلى الآبار التي استحدثها المسلمـون تحت تل العجـول لما كـانوا نـازلين عليـه، فأخـذوا معهم عليق أربعـة أيـام، فأخبر السلطـان بخروجهم على هذا الوجه، فأمـر اليزك أن ينزاحوا من بين أيديهم إلى تل كيسان، وكان اليـزك على تل العياضية، وكان نزول العـدو على الآبار بعد صلاة العصر مـن اليوم المذكور، وبـاتوا تلـك الليلة واليزك حـولهم جميع الليل، فلما طلع الصبح جاء من أخبر السلطان رحمه الله بأنهم قد تحركوا للـركـوب، وكـان رحمه الله قـد أمـر الثقـل في أول الليـل أن يسيروا إلى النـاصرة والقيمون، فـرحل الثقـل وبقي النـاس وأمر العسكـر أن يركبـوا ميمنـة وميسرة وقلبـاً تعبيـة القتـال، وركـب السلطـان، وصـاح الجاووش بالناس فركبوا، وسار حتى وقـف بتل من جبال الخروبة، وابتدأت الميمنة بالمسير، فساروا حتـى بلغ آخرها الجبـل، وسارت الميسرة حتى بلغ آخـرها إلى النهـر، وقـربـت مـن البحـر، وكـان في الميمنـة ولـده الملـك الافضـل صاحب دمشق وولده الملك الظاهـر غازي صاحب حلب، وولده الملك الظافـر صاحب بصرى، وولـد عز الديـن صاحـب الموصل علاء الـدين خرم شـاه، ثم الملـك العادل أخـوه في طرفهـا، ويليه قـريب منـه حسام الدين بـن لاجين والطواشي قايماز النجمي وعـز الدين جرديـك النوري، وحسام الـدين بشارة صاحـب نابلس، وبدر الـدين دلدرم صاحـب تل باشر الياروقـي وجمع كثير من الامراء، وكان في الميسرة عماد الـدين زنكي صاحـب سنجار، وابـن أخيه معـز الديـن صاحـب الجزيرة، وفي طـرفها

الملك المظفر تقي الدين ابن أخيه، وسيف الدين علي بن المشطوب وجميع المهرانية والهكارية وخشترين وغيرهم من الأمراء الاكراد وفي القلب الحلقة السلطانية، وأمر السلطان أن يخرج من كل عسكر جمع من الجاليش ليدور حول العدو واليزك معهم، وأخفى بعض الاطلاب وراء التلال، عساهم يجدون غرة من العدو، ولم يزل عدو الله يسير والناس يقاتلونهم من جميع جوانبهم، ولم يزالوا سائرين حتى نزلوا على تل هناك وضربوا خيامهم ممتدة منه إلى النهر، وجرح منهم في ذلك اليوم خلق عظيم، وقتل أيضاً خلق، وكانوا إذا جرح واحد منهم حملوه، وإذا قتل واحد منهم دفنوه وهم سائرون حتى لايظهر قتيل ولاجريح، وكان نزولهم يوم الثلاثاء بعد الظهر، وتراجعت العساكر عنهم إلى مواطن المصابرة ومواقف الحراسة، وتقدم السلطان إلى الميسرة أن تستدير بهم بحيث يقع آخرهم على البحر، والميمنة تستدير بالنهر من الجانب الشرقي، والجاليش يقاتلونهم ويرمونهم بالنشاب بحيث لاينقطع النشاب عنهم أصلاً، وبات الناس تلك الليلة على هذا المثال، وسار السلطان إلى رأس جبل الخروبة الذي كان نازلاً عليه في العام الماضي، فنزل في خيمة لطيفة والناس حوله في خيم بمرأى العدو، وأخبارهم تتواصل إليه في كل ساعة إلى الصبح.

ولما كان الصبح يوم الاربعاء وصل من خبر أنهم تحركوا للركوب عند الصبح، فركب السلطان وذلك في صبيحة يوم الأربعاء الثالث عشر من شوال ورتب الاطلاب، وسار حتى أتى قرب جبال الخروبة إليهم بحيث يشاهد جميع أحوالهم، وكان السلطان رحمه الله ملتاث المزاج، ضعيف القوة، قوي القلب، ثم بعث إلى العساكر وأمرهم بالمقاتلة والمضايقة والحملة عليهم من كل جانب، وأمر الاطلاب أن تحتاط بهم بحيث أن لاتكون قريبة ولابعيدة ليكونوا ردءاً للمقاتلة الى ان تضاحى النهار، وساروا على شاطىء النهر من الجانب الغربي يطلبون جهة خيمهم والقتال يشتد عليهم من كل جانب، فاشتدوا في قتالهم من سائر

الجوانب إلا من جانب النهر، والتحم القتال، فصرع منهم خلق عظيم وهم يدفنون قتلاهم ويحملون جرحاهم، وقد جعلوا راجلهم سوراً لهم تضرب الناس بالزنبورك والنشاب حتى لايتركون أحداً يصل إليهم، وخيالتهم يسيرون في وسطهم بحيث لم يظهر منهم أحد في ذلك اليوم أصلاً والكوسات تخفق والبوقات تنفر والاصوات بالتهليل والتكبير، هذا والسطان يمد الجاليش بالاطلاب والعساكر إلى عنده حتى لم يبق معه إلا نفر يسير، وعلم الفرنج مرتفع على عجلة، وهو مغروس فيها، وهي تسحب بالبغال، وهم يذبون عن العلم، وهو عال جداً كالمنارة، حرفيه بياض ملمع بحمرة على شكل الصلبان، ولم يزالوا سائرين على هذا حتى وصلوا وقت الظهر إلى قبالة جسر دعوق، وقد ألجمهم العطش، وأخذ منهم التعب، واثختتهم الجراح، واشتد بهم الامر، ولقد قاتل المسلمون في ذلك اليوم قتالاً شديداً، وأعطوا الجهاد حقه، وهجموا عليهم هجوماً عظيماً واستداروا بهم كالحلقة، وهم لايظهرون من رجالتهم ولايحملون، وجرح في ذلك اليوم جماعة، منهم: اياز الطويل رحمه الله، وجرح جراحات معدودة وهو مستمر على القتال، وجرح سيف الدين يازكوج جراحات متعددة وهو من فرسان الاسلام وشجعانه، ولم يزل الناس حولهم في ذلك اليوم حتى نزلوا ظهيرة ذلك النهار عند جسر دعوق، وقطعوا الجسر وأخربوه خوفاً من عبور الناس إليهم، ورجع السلطان الى تل الخروبة، وأقام عليهم يزكاً يحرسهم، وبات وأخبارهم تتواتر عليه حتى الصباح، وعزم تلك الليلة على كبس بقيتهم في الخيم، وكتب إلى البلد ـ أعني عكا ـ يعرفوا بذلك حتى يخرجوا هم من جانب، وعسكر السلطان من جانب، فلم يصل من أهل البلد كتاب، فرجع عن ذلك العزم بسبب تأخير الكتاب.

ولما كان صباح الخميس رابع عشر شهر شوال وصل من أخبر أن العدو في الحركة للرحيل، فركب السلطان وطلب الاطلاب، وكف الناس عن القتال خشية أن يغتالوا، وأوقف الاطلاب في الجانب الشرقي من

النهر يسيرون قبالة العدو، وكان ممن جرح من مقدميهم في هذه السرية الكندهري والمركيس، وتخلف ابن ملك الالمان في الخيم مع جمع كبير منهم، ولما دخل العدو إلى خيمهم كان لهم بها أطلاب مستريحة فخرجت على اليزك الاسلامي، وحملت عليهم، وانتشب القتال بين اليزك وبينهم، وجرى فيه قتال عظيم قتل فيه من العدو وجرح خلق عظيم، وقتل سن المسلمين ثلاثة نفر، وقتل منهم شخص كبير فيهم مقدم عندهم، وكان على حصان عظيم ملبس بالزرد إلى حافره، وكان عليه لبس لم ير مثله، وطلبوه من السلطان بعد انفصال الحرب، فدفع إليهم جثته، وطلب رأسه فلم يوجد، وعاد السلطان إلى مخيمه، وأعيد الثقل إلى مكانه، وعاد كل قوم الى منزلته، ولما كان يوم الجمعة الثاني والعشرين من شوال من هذه السنة رأى السلطان أن يضع للعدو كميناً، فأخرج جمعاً من كماة العسكر وشجعانهم وأبطالهم، وأمرهم أن يسيروا في الليل، ويكمنوا في سفح تل شمالي عكا بعيداً عن عسكر العدو، وأمرهم أن يظهر منهم نفر يسير ويقصدونهم في خيمهم، حتى إذا خرجوا انهزموا بين يديهم نحو الكمين، ففعلوا ذلك، وساروا حتى أتوا التل المذكور ليلاً، فكمنوا تحته، ولما علا نهار السبت الثالث والعشرين من شوال خرج منهم نفر يسير على خيل جياد، وساروا حتى أتوا مخيم العدو، ورموهم بالنشاب فانتخى منهم مقدار مائتي فارس، وخرجوا إليهم شاكين في السلاح على خيل جياد، وبعدة تامة، وليس معهم راجل واحد، وداخلهم الطمع فيهم لقلتهم، فانهزموا بين أيديهم وهم يقاتلونهم، حتى أتوا موضع الكمين، فخرج عليهم أبطال الموحدين، وصاحوا فيهم صيحة رجل واحد، وهجموا عليهم هجوم الأسد على فرائسها، فثبتوا وصبروا وقاتلوا قتالاً شديداً، ثم ولوا منهزمين، فمكن الله المسلمين منهم، ووقعوا فيهم ضرباً بالسيف حتى هلك منهم جمع عظيم، واستسلم الباقون للاسر، فأسروهم وأخذوا خيلهم وعددهم، وجاء البشير إلى السلطان، فارتفعت الاصوات بالتهليل والتكبير، وركب لملاقاتهم.

قال قاضي القضاة بهاء الدين: وكنت في خدمته حتى أتى تل كيسان واعتبر الاسارى، وكان فيهم مقدم عسكر الافرنسيس وخازن الملك أيضاً، ثم نزل السلطان في مخيمه فرحاً مسروراً، وأمر مناديا فنادى: ألا من كان عنده أسير فليحضر به، فأحضر الناس أسراهم، وأكرم المقدمين منهم، وألبس مقدم عسكر الافرنسيس فروة خاصاً، وأمر لكل واحد من الباقين بفروة جرخية فإن البرد كان شديداً، وكانوا عرايا موتى من البرد، وأحضر لهم طعاماً فأكلوه، وأمر لهم بخيمة نصبت قريباً من خيمته، وكان يكارمهم في كل وقت، ويحضر المقدم على الخوان في بعض الاوقات، ثم أمر بتقييدهم وحملهم إلى دمشق، وأذن لهم أن يراسلوا أصحابهم، وأن يحضروا لهم من عسكرهم مايحتاجون إليه من الثياب وغيرها، ففعلوا ذلك، وساروا إلى دمشق، وحبسوا هناك.

ومنها أن في اليوم التاسع من ذي الحجة من هذه السنة سقطت قطعة من سور عكا، وهي قطعة عظيمة.

وفي النوادر كان ذلك ليلة السبت السابع من ذي الحجة، فوقعت بثقلها على الباشورة فهدمت أيضاً منها قطعة عظيمة، فداخل العدو الطمع، وجاءوا إلى البلد كقطعة الليل المدلهم من كل جانب، فقام أهل البلد بهمم عالية، فقتلوا منهم جماعة، وجرحوا خلقاً عظيماً حتى أيسوا من أن ينالوا شيئاً من البلد، ووقف المسلمون موضع القطع كالسد، وجمعوا جميع من في البلد من البنائين والصناع، ووضعوهم في ذلك المكان وحموهم بالنشاب والجروخ والمناجيق، فما مرت ليال يسيرة حتى فرغوا من بنائها بأحسن مما كان.

ومنها أنه وقع وباء عظيم في الجيشين :المسلمين والكافرين ، وكان السلطان يقول في ذلك:

اقتلـــــــوني ومـــــــالكـــــــاً
واقتلـــــواممـــــالكـــــامعـــــي

ومنها أن في شهر ذي الحجة قدم القاضي الفاضل من الديار المصرية على السلطان، وكـان قد طال شـوق كل منهما إلى صـاحبه، فأفضـى كل واحد منهما إلى الآخـر ماكـان يسره ويكتمه من الآراء التـي فيها مصـالح المسلمين، وقدم وزير الصدق على السلطان الموفق، قدس الله روحهما.

ومنهـا أن في يـوم الاثنين الثـاني والعشريـن مـن ذي الحجـة عـاد المستأمنـون من الفـرنج الـذين أنهضهـم السلطان في بـراكيس ليغـزوا في البحر، ويكونـوا أيضاً جواسيس للمسلمين ، فرجعوا وقـد غنموا ، وذكروا أنهم وقعـوا بحـراقـة كبيرة ومعهـا بـراكيـس، وفيهـا تجار معهـم أمـوال لاتحصى، فـأسروا التجار، وأخذوا الأمـوال وجذبوهـا إلى الساحل،فـأنعم السلطـان عليهـم بهذه الأكسـاب، فلما رأوا ذلـك مـن السلطـان أسلـم أكثرهم، وكانـوا قد أحضروا برسم الهدية مائدة فضـة عظيمة وعليها مكبة بقيمة عـالية، ومعها طبـق يماثلها في الوزن، وكـل فضتها قاربـت قنطاراً، فقال السلطان: خذوها فأنتم بها أولى.

وقـال صاحـب النوادر: وكـان قـد استأمـن مـن الفرنـج خلق عظيـم أخرجهـم الجوع إلينا، وقـالوا للسلطـان: نحن نخوض البحر في بـراكيس ونكسب مـن العدو، فيكـون المكسب بيننـا وبين المسلمين ، فأذن لهم في ذلك وأعطاهم براكيس، فساروا، ثم ذكر البقية مثلما ذكرنا.

قلت: البراكيس جمع بركوس، وهو المركب الصغير.

وفيها أن في الرابع والعشرين من ذي الحجة أخـذ من الفرنج بركوسان فيهما نيف وخمسـون نفراً، وفي الخامس والعشرين منـه أخذ أيضاً بـركوس واحد فيـه من الفـرنج مقـدمون وروس وهـم نيف وعشرون، منهـم أربعة

خيالـة، ومعهم ملـوطة مكللـة باللؤلؤ بأزرار مـن الجواهر، قيـل إنها من ثياب ملـك الألمان، وأسر فيها رجـل كبير قيل إنـه ابن أخيـه، وهو كبير الشأن.

ومنها أنه لما هجـم الشتاء وهاج البحر أمنـت أهل عكا من أن يبـالغ العـدو في الحصار، وذلـك من شـدة الأمطار وتـواترهـا، فعند ذلـك أذن السلطـان رحمه الله للعسـاكـر الاسـلامية في العـود إلى بلادهـم ليستريحوا ويريحوا خيولهم إلى وقـت العمل،فكان أول من سار عماد الديـن صاحب سنجارلما كان عنده من القلق في طلـب الدستور، وكان مسيره يوم الاثنين الخامس عشر من شـوال، وسار عقيبه في ذلك اليوم ابن أخيـه سنجرشاه صـاحب الجزيـرة، وذلـك بعد أن أفيـض عليهما مـن التشريف والانعـام والتحـف بما لم ينعـم بها على غيرهما، وسار عـلاء الـديـن ابن صـاحـب الموصل في مستهل ذي القعدة من هذه السنـة مشرفاً مكرماً، معه التحف والطرائف، وتأخـر من العساكر الملـك المظفر تقي الديـن إلى أن دخلت سنـة سبع وثمانين، وتـأخـر أيضـاً ولد السلطـان الملـك الظـاهر غـازي صاحب حلـب إلى أن سار إلى حلب ضاحي نهار الاربعاء تـاسع المحرم من السنة الآتية.

وسار الملـك المظفر في ثـالث صفـر من السنـةالآتية وهـي سنة سبـع وثمانين ، ثم اشتغـل السلطان بـادخال البدل في البلـد، وأخرج مـن كان بها من الأمـراء الذيـن طالت شكـواهم إلى السلطـان من طـول الحصار ومـلازمـة القتـال ليـلاً ونهاراً، وأمـر السلطـان بـإدخـال المير والـذخـائر والنفقات والعـدد إليها، وكـان مقدم بها يـومئذ الأمير حسـام الديـن أبو الهيجـاء، فخرج هـو وأصحابـه ومن كـان بها من الأمـراء ، وكان مقـدم الداخلين من الأمـراء الأمير سيف الدين أحمـد بن علي المشطوب ، وكـان دخولهم فـي يوم الاربعـاء السـادس عشر من المحـرم من السنـة الآتيـة، وأخـذ كل أمـير معه ميـرة سنـة كـاملة، وانتقـل الملك العـادل بعسكـــــــره الـــــى حيفـــــــا علـــــى

شاطىء النهر، وهو الموضع الذي تحمل منه المراكب، وتدخل إلى البلد، وإذا خرجت تخرج إليه، وأقام ثمة يحث الناس على الدخول، ويحرس الميرة والذخائر لئلا يتطرق إليها من العدومن يتعرض لها، وكان مما دخل إليها سبع بطس ملوءة ميرة وذخائر ونفقات كانت وصلت من مصر، وكان السلطان قد عينها من مدة مديدة، وكان دخولها يوم الاثنين الثاني من ذي الحجة من هذه السنة، أعني ست وثمانين، ولما علم العدو بذلك، وهم القائلون من جانب البحر اجتمعوا في خلق عظيم وزحفوا على البلد من جانب البر زحفة عظيمة وقاربوا الأسوار وصعدوا في سلم واحد، فاندق بهم السلم، فتداركهم أهل البلد فقتلوا منهم خلقاً عظيماً، وعادت بقيتهم خائبين خاسرين، وأما البطس فإن البحر هاج هياجاً عظيماً فضرب بعضها ببعض على الصخر، فهلكت وهلك جميع ما كان فيها، وهلك فيها خلق كثير، قيل كانت عدتهم ستين نفراً، وكانت فيها ميرة عظيمة لو سلمت لكانت كفت البلد سنة كاملة، ودخل على المسلمين بذلك وهن عظيم، وحزن السلطان حزناً شديداً، وكان ذلك أول علامة أخذ البلد، والظفر به......

ذكر من توفي فيها من الأعيان

الأمير زين الدين يوسف بن زين الدين علي كوجك بن بكتكين صاحب إربل، وهو أخو مظفر الدين بن زين الدين، كان عند السلطان صلاح الدين في هذه السنة على الخروبة، فمرض في رمضان، وارتحل من الخروبة إلى الناصرة، فأقام يمرض نفسه، وكان عنده أخوه مظفر الدين يمرضه، فيقال إنه سقاه سماً فمات، وظهرت على مظفر الدين أمارات ذلك، فإنه لم يكترث لموته ولا تأسف عليه، وبلغ السلطان فحزن عليه وبكى لأنه كان صاحبه ومصافيه وشاكره وداعيه، وحزن المسلمون عليه لمكان عفته وشبابه وغربته، ظنا منا أنه قد حزن عليه حزن الأخ على أخيه، [وقصدناه معزين]فكأنا جئنا نهنيه، واذا به مشغول عنه

بحيـازة أموالـه وأسبابـه، والقبض على عمـالـه وكتابـه، ثم أرسل مظفـر الدين الـى السلطان يطلب منه إربـل، وينزل عن حران والـرها، فأجـابه الى ذلك وسألـه كتابا الى صـاحب إربل في هذا المعنى، وأضـاف اليه شهرزور واعمالها.

وقال ابـن كثير: وارتجع ما كـان بيد مظفر الـدين وهـو : حران والـرها وسميساط، وأعطـاها الملك المظفـر تقي الديـن عمر زيادة على مـابيده ، وهو ميافـارقين، وفي الشام حماه ومعرة النعمان وسلمية ومنبـج وقلعة نجم وجبلة واللاذقية وبلاطنس وديار بكر(٢٦).

الأمير سـوار: استشهـد على عكا في هـذه السنـة، وكـان من ممـاليـك السلطان الخواص.

وقال العماد: استشهـد على عكا سبعـة من الأمـراء من جملتهـم سوار المذكور، وكـذلك استشهد عدة من الاكراد وقـال: استشهد في اليوم التاسع من جمادى الأولى من هذه السنة....

ملك الألمان: الذي أقبل في مائتي ألف مقاتل ، وقيل في ثلاثمائة ألف مقاتل كما ذكرنا، وقد أهلكه الله بالغرق كفرعون، كما ذكرنا.

ابن ملـك الألمان: الذي تولى بعد هـلاك أبيه على طرسـوس، هلك في آخر السنة، لعنه الله.

وقـال العماد: وهلك ابـن ملك الألمان بعلـة الجوف ولعلـه من مـرض الخوف في ثـاني عشر ذي الحجة مـن هـذه السنـة، وأدرك أباه في الـدرك الأسفل من النـار وأبصر في جهنم مصائر أمثاله مـن الكفار، وزاد لهلاكه ألم الألمانية، وانسـد بموته فـرج الأفرنجيـة، وتبعه في السفر إلى سقـر كند كبير يقـال له كنـد أرناط دافـع القدر فما قـدر، وهلك منهـم بالأمـراض المختلفة العدد الكثير، لعنهم الله تعالى.